

بسم الله الرحمن الرحيم

جامعة بير زيت
كلية الدراسات العليا
برنامج التاريخ العربي الاسلامي

سكان فلسطين في العهد المملوكي

رسالة ماجستير مقدمة من الطالب
شفيق عواد عبد الكريم عرار

إشراف الدكتور :

محسن يوسف

لجنة المناقشة :

د خليل عثمانة

د محسن يوسف

د عامر نجيب

قدمت هذه الرسالة استكمالاً لمتطلبات درجة الماجستير في التاريخ العربي الاسلامي من

كلية الدراسات العليا جامعة بير زيت - فلسطين

لعام 2003 - 2004

الإهداء

إلى روح أمي الطاهرة

إلى والدي العزيز

إلى زوجتي وأبنائي مجدي، واسراء، وأحمد، وديمه، ومحمد، الأحباء

إلى شهداء فلسطين

أهدي هذا العمل المتواضع

شكر وتقدير

لا يسعني الا أن أتقدم بجزيل الشكر والامتنان للدكتور محسن يوسف لملاحظاته البناءة أثناء مرحلة الاشراف على هذه الدراسة ، ولتقديمه النصح والارشاد والتوجيه أثناء فترة اعدادها 0

وأتوجه بالشكر والتقدير الى أعضاء لجنة المناقشة الدكتور خليل عثمانة والدكتور عامر نجيب لتفضلهم بمناقشة هذه الدراسة 0

كما وأتوجه بالشكر والتقدير الى رفيقة دربي سمية الحلو لجهدا الكبير وقيامها بترجمة بعض النصوص المهمة من اللغة الانجليزية 0

ولا يفوتني هنا الا أن أتقدم بجزيل الشكر والتقدير الى كل من الدكتور عبد الرحمن المغربي والأستاذ عبد الحكيم أبو جاموس وزباد خدّاش والأخ سفيان المالوخ والأخت عبير الحتو الذين لم يدّخروا جهداً الاّ وقدموه 0

قائمة المحتويات

الموضوع	رقم الصفحة
الأهداء	ت
الشكر	ث
قائمة المحتويات	ج
ملخص باللغة الانجليزية	خ
المقدمة	ذ
الفصل الأول : تاريخ المماليك ودولتهم	1
- مقدمة	1
- بروز ونشوء دولة المماليك	2
- وصف دولة المماليك	5
- المماليك والتتار	12
- الصراع المملوكي الصليبي	14
- أهمية المماليك في التاريخ العربي الاسلامي	18
- أشهر سلاطين المماليك	19
- تأثير الاستقرار والأمن على الاقتصاد	25
- نيابات فلسطين في العهد المملوكي	26
- الخاتمة	29
- الهوامش	31
الفصل الثاني: الفئات الدينية	37
- مقدمة	37
- المسلمون	37
- النصارى	43
- اليهود	52
- الخاتمة	66
- الهوامش	68
الفصل الثالث: الفئات العرقية	74
- مقدمة	74
- الصليبيون	75
- الجاليات الأوروبية	82
- المغاربة	84

86	- الجاليات الشرقية (هنود- أفغان-مشاركة- مغول)
88	- الأتراك والجر اكسة
89	- الأكراد
91	- التركمان
92	- القبائل العربية
98	- العبيد
104	- الخاتمة
106	- الهوامش
111	الفصل الرابع: الطبقات الاجتماعية والاقتصادية وعلاقاتهم بالسلطة
111	- مقدمة
112	- الحكام والاداريون
123	- طبقة العامة
130	- طبقة العامة الرثة (الأحداث والعيارون والشحاذون)
134	- الطبقة الوسطى (العلماء والتجار)
140	- العلاقات المتبادلة بين سكان الريف والمدن والبدو
144	- الخاتمة
146	- الهوامش
152	الخاتمة
156	قائمة المصادر والمراجع
168	الملاحق

Abstract:

I have chosen the subject "The Palestinian Population in the Mamluk Period" for the following reasons:

The importance of this period and because it is full of important historical events.

The studies that focused on the demographic issue during the Mamluk period are rare.

To study and to know the effects of the Mamluk rule on the demographic structure of Palestine.

To know the religious division of the people in this country and the social and racial structure of the people during this period.

To study the economic and human activity in Palestine.

To study the relation between the ethnic, social, p[olitical, and religious groups in one side, and their relation with Mamluk Authority on the other.

The study found that the Muslims formed the great majority of the population. I estimate their percentage to be 70-80% of the total population, while the Christians made up 20-30%. On the other hand the Jews made up less than 5% of the total population.

The Mamluk authorities practiced unjust policies against the people and they managed the country in a bad way that led to the spread of bribes and patronage. Starvations and diseases spread over especially the Plagues that killed a lot of people. The conflicts between the Mamluk sultans and princes resulted in weakening the country and ignoring the affairs and interests of the people. As a result of this situation, the authorities had imposed high taxes on farmers, merchants, and artisans. It had also resorted to the policy of forced selling and buying.

The Mamluk sultans have linked their existence to the struggle of liberating the land from the Crusaders and Mongols therefore they showed a great deal of interest in the religious affairs and kept good relation with the Muslim scientists ('ulama). They built many mosques and schools (madrasas) especially in Jerusalem trying by that to win the hearts and support of their people, and the support of the Islamic World. They tried to show themselves as defenders of Islam and Muslims.

The Mamluk Class was a separated class from the rest of the population in Palestine. There was almost no relation between these rulers and the ruled people. The employees didn't care about the people's problems. What made things even worse is the fact that the Mamluks refused the principle of heritage in ruling. The struggle among the members of this class was a common phenomenon. This struggle led to instability and disorder in the region.

The different ruled classes have lived side by side and had natural relations among themselves, despite few problems which erupted from time to time. Usually the Mamluks have supported some groups against other groups according to their interests and goals. Only few groups won some passion of the Mamluks like the 'Ulama group and the merchants. The Bedouin tribes also got certain degree of special treatment by the authorities. These tribes helped the authorities in collecting taxes and imposing security in the area on many occasions, on other occasions we find them participating in robbery and causing disorder especially in the time of crisis.

المقدمة:

للكتاب عن موضوع سكان فلسطين في الفترة المملوكية لا بد للباحث عن هذه المعلومات من أن يجول في ميادين شتى ومصادر مختلفة 0 ولعل جزءاً مهماً من المعلومات التي قد يوفق الباحث في العثور عليها ، سواء كانت متصلة بفلسطين كولاية سياسية ، أو كانت متصلة بسكانها وفئاتها ومجتمعها أو اقتصادها نجده في الغالب مختلطاً بالمعلومات الخاصة عن مصر والشام وسكانها ومجتمعها واقتصادها 0

كان عدد الدراسات الحديثة التي اهتمت بسكان فلسطين خلال الفترة الإسلامية الوسيطة ، وخاصة فترة المماليك قليلة ، مما جعل المؤرخين يختلفون في الأمور الأساسية المتعلقة بهذا الموضوع 0

حرصت هذه الدراسة على البحث عن الحقائق التاريخية المتعلقة بالسكان وفئاتهم في الفترة المملوكية ومدى تأثيرهم بالحوادث في تلك الفترة 0 وقد قمت باستقراء الحوادث كما وردت في المصادر العربية والمراجع العربية والأجنبية 0 حيث استقدت من دراسات بعض المؤرخين التي تتعلق بهذا الموضوع وما كتبه الباحثون ممن رجعت الى دراساتهم، كما قمت بدراسة كتب وتراجم مختلفة للتعرف على أخبار فلسطين في العصر المملوكي والتي تكاد تكون متناثرة هنا وهناك 0

وقع اختياري على هذا الموضوع نظراً لأهمية العصر المملوكي ولكونه حافلاً بالأحداث التاريخية، وبسبب تعدد العوامل المؤثرة على تركيبة السكان في فلسطين 0 ومن أجل دراسة ومعرفة أثر الحكم المملوكي على التركيبة السكانية لفلسطين إضافة الى معرفة خارطة الدينية لسكان هذا البلد والتركيبية الاجتماعية والعرقية للسكان في فترة المماليك ودراسة النشاط الاقتصادي البشري في فلسطين وطبيعة العلاقة بين المجموعات الدينية والاثنية والاجتماعية من جهة وعلاقتها بالسلطة المملوكية من جهة أخرى 0

ومما يزيد من أهمية هذه الدراسة أنها تعالج السكان في الفترة المملوكية التي تعتبر فترة انحطاط وتدهور في جميع المجالات 0 ولتبيان هذه السياسة المملوكية الظالمة

على سكان فلسطين وعلى نشاطهم الاقتصادي والثقافي وعلى علاقاتهم وعاداتهم الاجتماعية 0

أما بالنسبة لأهمية هذه الدراسة حيث الهجمة الصهيونية التي تدعي أن اليهود قد سكنوا فلسطين منذ آلاف السنين، وانهم أحق بهذه البلاد من أصحابها الشرعيين 0 حيث الشواهد التاريخية والدراسات السكانية تثبت أن أعداد اليهود في فلسطين كانت قليلة جداً بالنسبة لأعداد الفئات الأخرى 0 وبالتالي فإن هذه النتائج تدحض الفكرة الصهيونية وتثبت الحق الشرعي للفلسطينيين في هذه البلاد 0

من الواضح أن الدراسات السكانية التاريخية مهمة ، ليس من الجانب السكاني فقط 0 بل لأنها تساعدنا على فهم نواحي حياتية واجتماعية عديدة مثل النواحي العسكرية والاقتصادية والسياسية 0

لقد حرصت أن أقدم صورة مكتملة لسكان فلسطين في الفترة الممتدة من (648 هـ / 1251م) - (922 هـ / 1517م) 0 ومن أجل بلوغ هذا الهدف قسمت هذه الدراسة الى أربعة فصول وهي على النحو التالي:

الفصل الأول : "تاريخ المماليك ودولتهم"

تحدثت في هذا الفصل عن أصل المماليك وكيفية بروز ونشوء دولة المماليك ، ثم قمت بوصف دولة المماليك وتناولت صراعاتهم مع التتار والفرنجة ، وأوضحت أهمية المماليك في التاريخ العربي الاسلامي 0 كما ركزت على أهم سلاطين المماليك وانجازاتهم وبينت في نهاية الفصل تأثير الاستقرار والأمن على الاقتصاد 0

الفصل الثاني : "الفئات الدينية في فلسطين "

ضمت الفئات الدينية المسلمين والنصارى واليهود ونسبة كل منهم والمناطق

التي سكنوها ثم بينت العلاقة التي سادت بين هذه الفئات 0

الفصل الثالث : "الفئات العرقية"

تناولت الحديث عن هذه الفئات وكيفية قدومها الى فلسطين والأماكن التي استقرت

فيها، ثم أهم الأنشطة التي مارستها والخدمات التي قدمت للسلطة المملوكية ، ومدى أثرها

على الامن والاستقرار والاقتصاد في فلسطين 0

الفصل الرابع : " الطبقات الاجتماعية والاقتصادية وعلاقتهم بالسلطة "

تحدثت عن هذه الطبقات ومدى تأثيرها في الحياة السياسية والاجتماعية والاقتصادية للسكان 0 كما تناولت في هذا الفصل العلاقات المتبادلة بين سكان كل من الريف والمدن والبدو في هذه الفترة 0

وقد ركزت في هذه الدراسة وضمن هذه الفصول الحديث عن أوجه النشاط الاقتصادي والاجتماعي لهذه الفئات 0

ومع هذا فاني أرى أن هذه الدراسة يجب ألا تكون نهاية المطاف في هذا المجال ، وهي بالتالي نقطة انطلاق نحو دراسات أخرى مستقبلية تتناول مختلف المسائل والقضايا المتعلقة بتاريخ فلسطين في هذه الفترة لما لهذه الفترة من أهمية كبيرة في تاريخ فلسطين ، وكونها لم تغط جيداً من ناحية دراسية كبقية الفترات الإسلامية الأخرى السابقة واللاحقة 0

لقد ضمنت هذه الدراسة عدة ملاحق لها صلة وثيقة بالموضوع وأهمها :

الملحق الأول : سجل بأسماء السلاطين المماليك الذين تولوا الحكم في دولة المماليك الأولى والثانية وسنوات حكمهم 0

الملحق الثاني: احصاء لسكان فلسطين في مطلع القرن السادس عشر في بعض مدن فلسطين 0

الملحق الثالث : عبارة عن نص مرسوم للسلطان خشقدم من أجل إسقاط الضرائب المطلوبة على الرهبانيات 0

الملحق الرابع: نص مرسوم للسلطان جقمق بخصوص الأرمن في مدينة القدس 0

الملحق الخامس: نص للسلطان قانصوة الغوري بخصوص معاملة المسيحيين معاملة

لائقة 0 وقد نقشه على بلاطة ألصقها على باب كنيسة القيامة في مدينة القدس 0

الملحق السادس : خارطة لنيابات فلسطين في العصر المملوكي والمناطق التي ضمتها 0

ملخص

وقع اختياري على موضوع سكان فلسطين في العهد المملوكي لأهمية هذا العصر ولكونه حافلاً بالأحداث التاريخية ، ولكون الدراسات التي اهتمت بالفترة المملوكية من ناحية سكانية قليلة ، ومن أجل دراسة ومعرفة أثر الحكم المملوكي على التركيبة السكانية لفلسطين، اضافة الى معرفة الخارطة الدينية لسكان هذا البلد والتركيبية الاجتماعية والعرقية للسكان في فترة المماليك، ودراسة النشاط الاقتصادي والبشري في فلسطين، وطبيعة العلاقة بين المجموعات الدينية والاثنية والاجتماعية من جهة وعلاقتها بالسلطة المملوكية من جهة أخرى 0 ومما يزيد من أهمية هذه الدراسة أنها تعالج موضوع السكان في الفترة المملوكية التي تعتبر فترة انحطاط وتدهور في جميع المجالات 0

سكن فلسطين في الفترة المملوكية أخلاطاً من العرب والفرنجية والتركمان والأكراد والأتراك وقد لعبت هذه المجموعات دوراً كبيراً في الحياة الاجتماعية وكان لها تأثيرات كبيرة انعكست على الجوانب السياسية والعسكرية والاقتصادية 0 بينت هذه الدراسة أن المسلمين كانوا يشكلون الغالبية العظمى من السكان حيث وصلت نسبتهم ما بين 70-80 % من مجموع السكان ونسبة النصارى 20-30 % أما نسبة اليهود فلم تتجاوز 5% في جميع الأحوال 0

مارس المماليك سياسات ظالمة ضد السكان وأداروا البلاد بشكل سيء ، فانتشرت في عهدهم المحسوبية والرشاوى وعمت البلاد الفوضى واضطراب الأمن وانتشرت المجاعات والأمراض خصوصاً الطوائع التي أهلكت الكثير من الناس 0 ولقد أدت الفتن والصراعات بين السلاطين والأمراء الى اضعاف الدولة وقلة الاهتمام بشؤون سكانها حيث لجأت الدولة الى فرض عالية ضرائب على الفلاحين والتجار والحرفيين ولجأت الى سياسة البيع والشراء بالاكراه (سياسة الطرح) وساهمت بالتالي في افقار الناس وشل الحركة الاقتصادية 0

لقد ربط سلاطين المماليك وجودهم بالجهد من أجل استعادة الأرض والاستحواذ على الحكم والسلطة ، واهتموا بالجانب الديني لدولتهم وقربوا العلماء منهم ، وأكثروا من بناء المساجد والمدارس خصوصاً في بيت المقدس محاولين بذلك كسب تأييد سكان دولتهم وتأييد العالم الاسلامي ، واطهار أنفسهم كحماة للاسلام والمسلمين 0 لقد كانت طبقة المماليك طبقة حكام منعزلة عن بقية السكان في فلسطين ، ولم تنشأ علاقات ما بين الحاكم والمحكوم ، ولم يهتم كبار الموظفين بهوموم الناس ومشاكلهم 0 ومما زاد الأمر سوءاً أن المماليك رفضوا مبدأ الوراثة في الحكم وهذا جعل الصراع على السلطة مشاعاً بين أفراد هذه الطبقة ، حيث نشط الأمراء الطامعين للوصول الى الحكم أحياناً بالتمرد وأحياناً بالانقلاب العسكري، وهذا خلق الكثير من الفوضى وعدم الاستقرار في البلاد 0

أما الطبقات المحكومة فقد عاشت جنباً الى جنب وأقامت بينها علاقات طبيعية رغم وجود بعض الحوادث التي كانت تعكر صفو هذه العلاقات 0 وقام المماليك بدعم فئة على حساب فئة أخرى وذلك تبعاً لمصالحهم وأهدافهم وحالوا دون قيام معارضة قوية وفعالة ضدهم ، ولم تحظى الا فئة قليلة بعطف المماليك والاهتمام بهم مثل

العلماء والتجار الذين شكلوا دعماً للسلطة المملوكية وساهموا في منح الشرعية للضرائب التي فرضتها السلطات المملوكية على الشعب ، كما امتدت رعاية الممالك الى القبائل البدوية التي لعبت دوراً كبيراً في جباية الضرائب وحفظ الأمن الا أنها ساهمت أحياناً في أعمال السلب والنهب واضطراب الأمن خصوصاً في الأزمات 0

الفصل الأول : تاريخ المماليك ودولتهم

مقدمة

تميز تاريخ مصر وسوريا بين السنين (648 هـ/1250م - 922 هـ/1517م) بما أوجده المماليك من مؤسسات 0 فأصل المماليك عبيد عسكريون من العنصرين التركي والشركسي كان الأيوبيون قد استخدموهم عندما عدوهم من مقتنيات السلطان الذي أفرد لهم ثكنات خاصة وعمد الى تدريبهم على الأعمال الحربية والفروسية 0

كان المعز أيبك أول سلاطين المماليك 0 وكان اذا مات أحدهم كان الذي يتولى الحكم من بعده في الغالب ليس ابنه بل أحد عبيده أو بعض المرتزقة من أتباعه، ممن تميزوا بعمل كبير ، أو أحرزوا شهرة كبيرة 0 وهكذا فان العبد بالأمس كثيراً ما كان يصبح قائداً في الجيش، ليغدو في المستقبل السلطان الحاكم 0

حاول سلاطين المماليك كسب رضا الناس من أجل إبعاد الناس عن سياساتهم الظالمة وادارتهم السيئة للبلاد، فتصدوا للنتار والفرنجة الذين هددوا وجودهم ودولتهم، وحاولوا اتباع الأيوبيين في جهادهم ضد الصليبيين، ثم تطلّعوا لنيل الشرعية في الحكم فقاموا بأحياء الخلافة العباسية في القاهرة ، وأضافوا لذلك الاهتمام ببناء القلاع والحصون والخانات والأسبلة لكي يكونوا على استعداد دائم لقتال الأعداء ولكي يحوزوا يحوزوا على رضا الناس ويثبتون أقدامهم في الحكم 0

بروز ونشوء دولة المماليك

شهدت الدولة الأيوبية في مراحلها الأخيرة انقسام مصر وبلاد الشام الى دويلات وامارات مختلفة ومتصارعة ، حيث حرص كل أمير على تكوين جماعة داعمة ومالية له، يعتمد عليها في الاحتفاظ في ادارته وامارته 0 وكان التوجه لدى السلاطين تكوين جيوش يمتلكها السلطان أو الأمير عبر شراء الرقيق الأبيض الذي نمت أعداده وتزايد نفوذه في كل من مصر وسوريا والجزيرة الفراتية 0 ويعود ذلك الى الملك الصالح نجم الدين أيوب الذي اقتنى أعداداً كبيرة من الأتراك ليتصدى لخصومه الأيوبيين من جهة ولأعدائه من جهة أخرى 0 وقد تمكن هؤلاء من التغلغل في مواقع السلطة، والتدخل في شؤون الحكم 0 (1)

وفي سنة (648هـ/1250م) وأثناء مرض الصالح أيوب تمكنت الحملة الصليبية السابعة من احتلال دمياط والتقدم نحو القاهرة، فحزم المماليك أمرهم ازاء هذا الخطر وتوحدوا في قتال الفرنجة وتمكنوا من انقاذ مصر من خطرهم بعد هزيمتهم 0 ثم نصبوا بعد موت الصالح أيوب ولده توران شاه الذي قام بحملة واسعة للقضاء على نفوذهم المتنامي، وبدأ يقتل ويسجن وينفي، وحاول تشكيل جهاز اداري وعسكري جديد ليس له علاقة بالماضي، وبدأ يتوعد شجرة الدر زوجة أبيه بالسوء فقامت بمكاتبة المماليك تشتكي لهم السلطان توران شاه 0 وقد تزامنت هذه المكاتبة مع ازدياد تذمر المماليك من السلطان الجديد الذي حاول انهاء وجودهم 0 كما أنه في اعتقادهم قد انصرف الى اللهو والعبث وأهمل شؤون الدولة، فقرروا قتله، وبعد تدبير مكيدة له قام ببيرس البندقاري بضربه بالسيف فقطع أصابع له، وأفلت توران شاه

ليهرب يلتجأ الى برج خشبي 0 وقد تبعه المماليك وقاموا باحراق البرج، فسقط مشتعلًا في

الماء ثم مات 0 يقول المقرئ في هذا الشأن " فمات جريحاً حريقاً غريقاً " (2) 0

أجمع المماليك على تعيين شجرة الدر خلفاً له، ولكن قيام امرأة بالحكم هو أمر غير

مقبول فحاولت جاهدة عدم ابراز نفسها حتى في الدعاء لها على المنابر 0 فكانت تذكر القابها

ولا تذكر اسمها ، حيث كان الخطباء يقولون بعد الدعاء للخليفة العباسي " واحفظ اللهم الجبهة

الصالحية ملكة المسلمين، عصمة الدنيا والدين، ذات الحجاب الجميل والستر الجليل والدة

المرحوم خليل زوجة الملك الصالح نجم الدين أيوب " (3) 0

واجهت شجرة الدر مشكلة حقيقية تمثلت بعدم اعتراف الشام بسلطانها ، كما وقعت

عدة ثورات ضدها، وتكتل ملوك بني أيوب في الشام في جبهة واحدة في وجه المماليك في

مصر، فقرروا غزوها واعادة المجد الأيوبي الذي انهار، اضافة الى موقف الخليفة العباسي

المستعصم الذي كتب للمماليك في مصر يقول " اعلّمونا ان كان ما بقي عندكم في مصر من

الرجال من يصلح للسلطنة ، فنحن نرسل لكم من يصلح لها، اما سمعتم في الحديث عن

رسول الله صلى الله عليه وسلم انه قال: "لا أفلح قوم ولوا أمرهم امرأة 000" (4) وعلى

ضوء هذه المعطيات تزوجت شجرة الدر من الأمير عز الدين أيبك التركماني وتنازلت له عن

الحكم سنة (648 هجري/1250م) بعد أن حكمت حوالي ثمانين يوماً فقط (5) 0 وقد ترتب

على هذا العزل أن أصبحت مجرد امرأة من نساء الحريم الأمر الذي لم تقبل به شجرة الدر ،

فأخذت تفكر في التخلص من زوجها فعلم بمآربها، فأخذ يتربص بها، وانتهت المؤامرات بين

الزوجين بموتهما، فقد حبست شجرة الدر زوجها أثناء الاستحمام، وانهالت عليه بالضرب هي ومماليكها الى ان مات 0 ولكن مماليك المعز لم يغفروا لها فعلتها فقتلوا والقوا بجنتها من أحد أبراج قلعة القاهرة 0 لينتهي الصراع العائلي سنة (655 هجري/ 1257م) 0(6) وقبل موتها جرت حروب ومصادمات بين أيوبيي الشام ومماليك مصر الى أن اتفق الطرفان على عقد معاهدة بينهما سنة (651 هجري/ 1253م) تم بموجبها ان تكون فلسطين بما فيها القدس حتى نهر الأردن للمماليك ، وتبقى الأجزاء الشمالية من بلاد الشام في أيدي الأيوبيين بزعامه الملك الناصر يوسف صاحب دمشق، والملك المغيث عمر صاحب الكرك 0 وبالرغم من هذه الاتفاقية فقد استمر النزاع بينهما ، ولم يتوقف الا عند ظهور عدو خارجي فرض نفسه على ساحة القتال 0 لقد كان هذا العدو المغول الذين كانوا في طريقهم الى فلسطين 0 وهنا دعا الخليفة العباسي الطرفين الى توحيد قواهم لمواجهة المغول 0 (7)

يرى البعض أن ما حدث من انكسار للصليبيين، وتوحيد جهود المماليك واندثار الأيوبيين بمقتل توران شاه، وتنازل شجرة الدر عن الحكم للأمير عز الدين أيبك قد مهد السبيل أمام المماليك للسيطرة على بلاد الشام ، وفي مقدمتها فلسطين، ولكن السؤال الذي يطرح نفسه: هل كانت السلطات المملوكية ترغب بالاستيلاء على فلسطين ومجمل بلاد الشام ؟ ليس هنالك ما يفيد بالإيجاب في كل ما حوته المصادر التاريخية من معلومات ، كما أنه لا يجوز لنا أن نفترض أن المماليك كانوا سيسيرون على هدى حكام مصر المستقلة السابقين في سياستهم الخارجية تجاه بلاد الشام الذين كانوا يطمحون في السيطرة على بلاد

الشام من أجل ضمها لمصر ليشكلاً مشروعاً متكاملًا للوحدة 0 وهذا المشروع كان قد بدأ به من قبل الأيوبيين والزنكيين 0 وبالتالي لا يمكن أن نتحدث عن وجود سياسة خارجية مرسومة لدى المماليك ، بل كان هناك ردّات فعل تجاه الأحداث والوقائع 0 ثم أن المماليك لم يعرفوا الحكم المستقر 0 كما أن أمراء المماليك ورجالاتهم لم يتحرروا من عقدة الرق ، في حين كان حكام الشام يملكون الاعتراف الشرعي بهم 0 (8)

وصف دولة المماليك

كانت سلالة المماليك التي تكونت في مصر وبلاد الشام ذات وضع غريب في تاريخ السلالات، لأنها اذا صح اعتبارها سلالة فكانت كما يستدل من اسمها سلالة عبيد من أجناس مختلفة ، وقوميات متباينة ، اقامت دولة عسكرية في بلاد ليست بلادهم، فاذا مات أحدهم كان الذي يتولى الحكم من بعده في الغالب ليس ابنه بل أحد عبيده أو بعض المرتزقة من اتباعه ممن تميزوا بعمل كبير أو أحرزوا شهرة كبيرة 0 وهكذا فان عبد الأمس كثيراً ما كان يصبح قائد جيش ليغدو في المستقبل السلطان الحاكم 0 وبقي السلاطين العبيد يحكمون بالسيف بقعة من أشد بقاع الأرض اضطراباً نحواً من قرنين وثلاثة أرباع القرن (267) سنة ومع أنهم كانوا غير مكثرئين بأحوال السكان ومشاكلهم وغير مثقفين ، فانهم حافظوا على الدولة ، وأدوا خدمات كثيرة الى الاسلام 0 (9)

لقد كان المماليك رقيقاً من أجناس متعددة حملهم الى المنطقة تجار رقيق من المناطق الواقعة في بلاد القفقاس وتركستان 0 (10) وقد استخدمهم الأيوبيون على نطاق واسع، وأصبحوا من جملة مقتنيات السلطان الذي أفرد لهم ثكنات خاصة ، وعمد الى تدريبهم على الأعمال الحربية والفروسية كما جرى تنظيمهم عسكرياً 0 فشكّلوا طبقة عسكرية حاكمة 0 وشكّلوا لأنفسهم مجتمعاً خاصاً بهم (11)، انهم شكّلوا طبقة عسكرية حاكمة ولم يستطيعوا تشكيل طبقة ارسقراطية حاكمة اذ كان ينقص مجموعتهم عدة شروط من مقومات الطبقة الارسقراطية الحاكمة: منها الاستثمار المنتج والوراثة والاستقرار 0 أما الوراثة وان نجحت نسبياً في اعتلاء عرش السلطنة، فانها لم تتجح أبداً في الارث العائلي اذ لم ينجح السلاطين والأمراء في ضم أولادهم الى الطبقة العسكرية الحاكمة الا أحياناً نادرة 0 ففي دولة المماليك لم يكن الاقطاع مضمون البقاء في يد صاحبه، فكان يسقط عنه حين الوفاة أو اذا غضب السلطان عليه 0 أما الشرط الثاني فكان الاستقرار والعيش بطمأنينة وهدوء 0 فبالرغم من ان الارسقراطية تعتمد الى المنافسة الحرة أو المبنية على الخديعة، ولكنها لا تتوسل العنف الدموي بشكل فتن وثورات فيما بينها تحقيقاً للمآرب الخاصة 0 والعصر المملوكي كان سلسلة متلاحقة من الفتن والثورات الدموية 0 أما الشرط الثالث فهو ان المماليك يتسلطون على خيرات البلاد وعلى التجار والحرفيين عوضاً عن شروعهم باستثمار أموالهم الطائلة 0(12) وهذه الطبقة عاشت بعيدة عن مآسي الشعب والأمة خصوصاً أن العامل المالي كان المحرك الرئيسي لها 0 ولم تذكر المصادر المملوكية أن اميراً واحداً عاش حياة فقر أو بؤس أو شكاً

يوماً ضيق ذات اليد 0 (13) كما أن هذه الطبقة كونت لنفسها مجتمعاً خاصاً بها كي لا تختلط بالسكان الأصليين 0 وعدم الاختلاط بالسكان يعود الى أن المماليك عند تأسيس دولتهم سنة (648هـ / 1250م) قد شعروا بالحرَج والخوف من انقراض الناس عليهم، لأنهم رقيق اذ كان يأتي الرقيق في الدرجة الاجتماعية الدنيا 0 ولكن بعد ان قضى المغول على الدولة العباسية سنة 1258م وانكسارهم فيما بعد أمام المماليك سنة 1260م في معركة عين جالوت بفلسطين أضحى المماليك حماة الاسلام 0 وقد زاد نفوذهم وهيبتهم عقب قضائهم على الصليبيين سنة 1291م وأصبحوا بذلك القوة الرئيسة الاسلامية في الشرق، فتبدلت المواقف وشعر المماليك بالعز والسلطة 0 ونظر المماليك الى السكان نظرة تعال واحتقار وتسلطوا عليهم وكرهوا الاختلاط بهم 0 (14)

استطاعت طبقة المماليك الحفاظ على ذاتها والتكاثر طبقاً للمبادئ التالية: يعتبر مملوكاً كل من لم يكن مسلماً وقد ولد في بلد غير اسلامي (دار الحرب) ثم خدم أحد المماليك سواء كان سلطاناً أو أميراً ، ثم قام الأمير بتنشئته وتربيته اسلامياً وقام بعد ذلك باعتاقه 0 وقد اعتبر الاخلاص للسيد الجديد وللأصدقاء الذين يعملون في خدمة هذا السيد بمثابة الثوابت التي تميز تصرف المماليك 0 (15)

لقد تعرض نظام المماليك للخطر بعد القرن الخامس عشر الميلادي بسبب صعوبة استخدام ممالك جدد من خارج الحدود 0 كذلك أدى احتجاز المماليك في ثكنات خاصة ومنعهم من الاختلاط بالسكان المحليين الى عدم تأقلم نظام المماليك مع الأوضاع السائدة 0 والواقع أن

أزمة الحكم كانت متوقعة ، اذ قضى نظام المماليك أن لا يعتبر الأبناء المنحدرون من المماليك مماليك الا اذا قرر السلطان ذلك 0 ففي الفترة الأولى من حكم المماليك (1250-1380) لم يتمكن أبناء السلاطين من البقاء على رأس السلطة الا بصورة متقطعة ومؤقتة 0 وقد تمكن السلطان قلاوون الذي حكم فترة طويلة امتدت من عام 1279 الى عام 1290 من ارساء سلالة حاكمة ولكنها محدودة الى حد ما حيث اضطر ابنه الناصر محمد للتخلي عن العرش أكثر من مرة 0 (16)

بالرغم من الانجازات الكثيرة التي حققها المماليك الذين انحدروا من أصول وانتماءات متعددة ، فقد فطروا بوجه عام على الخيانة والخديعة وانتهاز الفرص 0 فالاعداد الجيد والتربية الصحيحة لم يجديا أمام مغريات الأنانية الشخصية التي لازمت المماليك في أواخر العهد الأيوبي وطيلة العهد المملوكي (17)

تقسم دولة المماليك الى مرحلتين ، المرحلة الأولى عرفت بدولة المماليك البحرية أو الصالحية ، وقد بلغ عدد سلاطينها أربعة وعشرين سلطاناً ، معظمهم من الأتراك 0 ويعود الفضل الأساسي في تكوين دولة المماليك البحرية الأولى الى السلطان الأيوبي الصالح نجم الدين أيوب الذي انشأ فرقة كبيرة متكاملة منهم لحاجته الى جيش قوي يؤازره في صراعه مع باقي أفراد البيت الأيوبي من ناحية، ومع الصليبيين من ناحية أخرى، فضلاً عن عزمه وضع حد لباقي فرق المماليك الذين غدروا به 0 لقد عمد هذا السلطان الى اعداد تلك الفرقة اعداداً عسكرياً رفيع المستوى ، وعمل على تربية أفرادها بحيث يقوموا على خدمته وتحقيق

أهدافه، وأسكنهم في مكان خاص بهم في جزيرة الروضة على النيل جانب القاهرة لذلك عرفوا بالبحرية 0 بعض الباحثين يعزون هذه التسمية الى أن هؤلاء المماليك كانوا ينقلون للمنطقة من وراء البحر ، والبعض الآخر يعتقد أن هذا ارتبط بالقلعة المبنية على جزيرة الروضة في النيل، حيث كان أغلب المماليك يتمركزون (18) 0 لقد استكثر هذا السلطان من المماليك وأباح لهم الاعتداء على الناس وعلى اموالهم الأمر الذي كاد ان يؤدي الى الثورة ، فاضطر الصالح الى بناء قلعة خاصة بهم وسط جزيرة الروضة فأسكنهم فيها واتخذها مقراً لملكه 0 من هنا عرف أوائل المماليك باسم المماليك البحرية أو الصالحية (19) 0

في أواسط القرن الرابع عشر ميلادي ظهرت الى الوجود الدولة المملوكية الثانية المماليك الشراكسة (البرجية) ، التي تعتبر استمراراً للأولى 0 وقد تميزت هذه الدولة عن سابقتها بتبديل العرق الحاكم من الأتراك الى الشراكسة الذين كانوا أصلاً من حراس السلطان قلاوون 0 حيث اقتصررت هذه الدولة على سلاطين شركس فقط ما عدا اثنان منهم يرجع أصلهما الى أصول يونانية وهما خشقدم وتمربغا 0 كما أن المبدأ الوراثي الذي حاول سلاطين المماليك البحرية تنصيبه في البيت القلاووني لا نجد له أي أثر عند البرجية 0 وقد سموا بالبرجية لأنهم كانوا يقيمون في أبراج قلعة القاهرة، وبلغ عدد أفراد هؤلاء زمن السلطان قلاوون ثلاثة الاف مملوك، وأضاف اليهم الأشرف خليل الفين ، وازداد نفوذ هؤلاء المماليك بازدياد نفوذ أبناء قلاوون ، وبالتالي ازداد العداء بينهم وبين المماليك البحرية 0 (20)

حاول الأتراك حصر العرش في سلالة قلاوون منذ مقتل السلطان الأشرف خليل سنة (692هـ/1293م) وذلك منعاً لوصول الشراكسة الى الحكم 0 ولكن الخطأ الذي وقعوا به تمثل بتنصيبهم سلاطين ضعاف على العرش كي يتسنى لهم حكم البلاد واستغلال مواردها الاقتصادية لحسابهم الخاص 0 إلا أن هذا الاجراء انعكس على الجيش الذي انقسم الى عنصرين تركي وشركسي ، واتخذت الثورات انذاك طابع الصراع من أجل البقاء، ولم يكن للسكان أية قيمة حقيقية 0 فصودرت أموالهم، وتعدى الجنود على ممتلكاتهم وقد يفهم البعض أن الصراع بين البحرية والبرجية على أنه صراع عرقي، لكنه في حقيقة الأمر كان صراعاً على النفوذ والسلطة (21) 0 ان انتصار البرجية على البحرية عام 1382م على يد السلطان سيف الدين برقوق لم يعدل الأوضاع بل زادها سوءاً 0 في عهد المماليك البرجية عمت الفوضى وساءت أحوال الناس 0 ومن ضمن ثلاثة وعشرين سلطاناً برجياً حكموا لمدة 134 عاماً، حكم تسعة منهم 124 عاماً وهم برقوق وفرج والمؤيد شيخ وبارسباي وجقمق واينال وخشقدم وقايتباي وقانصوة الغوري 0 وهذا يعني بأن أربعة عشر سلطاناً منهم حكموا عشر سنوات فقط الأمر الذي يشير الى عدم الاستقرار سياسي 0 وفي سعيهم لقطع الطريق على وراثة السلطنة والاستئثار بالحكم، طور المماليك البرجية (الخشداشية) رفقة التربية في الطباق وهي رابطة الأخوة أو الجماعة الواحدة التي تجمع بين المماليك الذين تربوا في بيئة واحدة ولدى أمير واحد 0 وعندما انحلت عرى هذه الرابطة لاحقاً أصبح أفرادها عصابات تدعم هذا الأمير أو ذاك، وتتناحر فيما بينها على السلطة والمال (22)

تميزت فترة حكم المماليك البرجية بالفساد من قمة هرم السلطة الى قاعدتها 0 وتميز كثير من السلاطين بالجهل وخصوصاً اللغة العربية ، فكان منهم من لم يحسن الكلام بالعربية ومن لا يفقه من علوم الدين شيئاً 0 وانتشرت ظاهرة صراعاتهم الداخلية وشراء الذمم والبحث الدائم عن مصادر المال بجميع الوسائل ، فزادوا الضرائب، واحتكروا الأسواق، وصادروا المحاصيل ، وظلموا الناس ، واستبدوا بهم 0 ففرت أعداد كبيرة منهم الى الريف والجبال 0 ومنذ بداية القرن الخامس عشر ميلادي ساءت أحوال فلسطين بصورة عامة على الرغم من فترة الانتعاش والهدوء النسبي في أثناء سلطة بارسباي 0 وفي النصف الثاني من القرن الخامس عشر تردى الوضع كثيراً، وزاد ظلم المماليك للناس بذريعة الحرب مع العثمانيين (23)

انتهت دولة المماليك أثر انتصار العثمانيين عليهم في معركة مرج دابق سنة 1516م شمالي حلب، ثم زحفهم جنوباً نحو مصر ، وانتصارهم على المماليك في معركة الريدانية خارج القاهرة في سنة 1517م 0 وقد يكون من أسباب هزيمة المماليك العوامل الاقتصادية التي تتمثل في تكرار الجفاف والقحط والجراد وانتشار المجاعات والأوبئة، والعوامل السياسية والعسكرية التي تمثلت في غزوات البدو والفوضى وعدم الاستقرار السياسي أيام السلاطين الضعاف، كما أن الدولة كانت محاطة بالأعداء ، علاوة على هجمات التتار بقيادة تيمورلنك 0 ولا شك أن اعتماد المماليك على الأسلحة التقليدية في معاركهم مع العثمانيين الذين استخدموا الأسلحة النارية قد أضر بهم 0 (24)

المماليك والتتار

هدد الخطر المغولي مصر بعد العراق والشام عام 1258م، فاضطربت الأوضاع في الشام وفلسطين بسبب قيام قوات المغول بأعمال قتل وسلب وتخريب 0 وقد كانت كل من حلب ودمشق مسرحاً لغزواتهم ، وتكررت نفس مشاهد القتل والدمار 0 واستمرت قوات المغول في زحفها حتى وصلت الى غزة التي كانت تعتبر بوابة مصر 0 وأرسل هولاكو قائد المغول الى السلطان قطز خطاب تهديد يطلب منه التسليم 0 وازاء هذا الخطر عمل قطز على جمع شمل قوات المسلمين، وانضم اليه بيبرس الذي كان عائداً من بلاد الشام وفلول عساكر الناصر يوسف الأيوبيبة 0 تابع السلطان قطز المسير الى حيث تجمعت قوات المغول في عين جالوت التي تقع الى الغرب من مدينة بيسان 0 في هذا الموقع دارت معركة فاصلة بين المسلمين والمغول سنة (658 هـ / 1260م) 0 في أول الأمر تفوق المغول الا أن المماليك ثبتوا في القتال وأنزلوا هزيمة نكراء بالمغول في نهاية الأمر وقتل قائدهم "كتبغا" وكثير من رجاله، وفرت فلولهم الى الشمال 0 ومما يسترعي الانتباه أن الفلاحين الفلسطينيين شاركوا في المعركة بشكل فعال ومؤثر خصوصاً أن أعدادهم كانت كبيرة (25) 0 وقد يكون السبب في مشاركة الفلاحين في المعركة ناجم عن شعورهم بمدى الخطر المحدق بهم من قبل المغول ومدركين لما حدث لسكان بغداد وحلب ودمشق 0

نجم عن معركة عين جالوت تغيرات كثيرة في منطقة غرب آسيا 0 فقد كبحت تقدم المغول ونقلت مركز الثقل السياسي في الشرق الاسلامي الى القاهرة التي كانت عاصمة المماليك 0 (26) لقد أدى انتصار المماليك في عين جالوت الى انقاذ مصر من خطر المغول ، وجعل دولتهم تمتد الى نهر الفرات حيث ربح المماليك الشام كله ، لأن المغول قد أزالوا الحكم الأيوبي باستيلائهم على دمشق وحلب وبلبك وبانياس بعد هروب الناصر يوسف صاحب دمشق الى غزة حيث تخلى عنه معظم جيشه 0 وبذلك فان هذه الأحداث قد أثبتت عدم قدرة الأمراء الأيوبيين على حماية الشام والوقوف ضد المغول ، في حين تمكن المماليك من اثبات قدرتهم على حماية البلاد والثبات في القتال 0 أضعفت عين جالوت قوى الزحف المغولي وقضت على الفكرة التي كانت سائدة بأن المغول لا يغلبون، علماً انه لم يتم القضاء على المغول قضاءً تاماً حيث كانت لهم دولة واسعة قبل هزيمتهم في عين جالوت ، لذلك نجدهم يستعدون من جديد ويهاجمون دولة المماليك عدة مرات بعد ذلك 0 ففي سنة (705 هـ/1300م) في عهد السلطان الناصر بن قلاوون أغار المغول على دمشق واحتلوها، وفي سنة (702 هـ/1302م) أعد لهم الناصر جيشاً ضخماً قربها وأوقع بهم هزيمة كبيرة وأسر منهم عشرة الاف جندي بعد استعادة دمشق 0 وعندما أدرك المغول صعوبة انتصارهم على المماليك 0 عقدوا صلحاً معهم سنة (722 هـ/1322م) وظل الأمر هادئاً حتى نهاية القرن 0

شهدت سنة (803 هـ / 1401م) ، ظهور تيمورلنك وذلك في عهد السلطان فرج بن برقوق 0 وقد تمكن من احتلال بغداد وحلب وحمص وبعلبك ودمشق 0 واتجه بعد ذلك الى آسيا الصغرى حيث هزم جيوش العثمانيين موقعاً السلطان العثماني بايزيد الأول أسيراً في قبضته، ومن حسن حظ المماليك والعثمانيين أن تيمورلنك لقي حتفه سنة (807 هـ / 1404 م) وشب نزاع بين خلفائه، انتهى الى فتنة داخلية استنفذت قواهم جميعاً ، الأمر الذي أتاح للمماليك استعادة شمالي بلاد الشام 0(28)

الصراع المملوكي الصليبي

تابع المماليك نفس السياسة التي خطها الأيوبيون في مقاومة الصليبيين، واستطاعوا أن يحرزوا نجاحات كبيرة، خصوصاً في عهد السلطان بيبرس والناصر قلاوون وابنه الأشرف خليل 0 فبعد معركة عين جالوت توجه السلطان بيبرس الى دمشق سنة (659 هـ / 1261م) وسلك الطريق الساحلي مستطعاً أوضاع المنطقة الساحلية وضاعطاً على الصليبين حيث التقى مع قادة الفرنج الذين التمسوا الصلح، وأبرم معهم هدنة شملت تبادل الأسرى ورفع المقاطعة الاقتصادية 0(29) ومن الملاحظ هنا أن مؤسسات الفرنجة السياسية والعسكرية في بلاد الشام تصرفت في بداية العصر المملوكي وكأنها جزء من المنظومة السياسية الشامية المحلية 0 حيث شعر السلطان بيبرس أن المخاطر الكبيرة في سيطرته على بلاد الشام ليست صادرة عن الفرنجة بل عن اماره الكرك التي كان حاكمها الأيوبي يطمح في السيطرة على القاهرة،

ولهذا اتخذ بيبرس قراره بالاستيلاء على الكرك 0 وقد نجح في ذلك في سنة (661هـ / 1263م) بعد سيطرته على قلعة الشوبك، التي كانت من أمنع القلاع في بلاد الشام 0 بعد هذا الفتح تفرغ السلطان للعمل ضد الصليبيين فشعرت المؤسسات الصليبية بالخطر المحدق بها، فأرسلت الوفود الى السلطان تعرض عليه التمسك باتفاقيات الهدنة فرفض وذكرهم بمجالات اخلالهم بشروط الهدنة ، وأوضح لهم مقاصده وشروطه بقوله: " أنتم في أيام الصالح اسماعيل أخذتم صفد والشقيف على أنكم تتجدونه على السلطان الملك الصالح أيوب، وأنتم أخذتم هذه البلاد من الصالح اسماعيل لاعانة مملكة الشام واطاعة ملكها ونصرته، وقد صارت مملكة الشام وغيرها لي، وما أنا محتاج الى نصرتكم ولا الى نجدتكم 0 فتردون ما أخذتم للاسلام بهذا الطريق ، وتفكون أسرى المسلمين جميعهم، ولا أقبل غير ذلك" (30)

خاض الظاهر بيبرس حرباً لا هوادة فيها ضد الصليبيين ، فاستولى سنة (663هـ / 1265م) على قيسارية ويافا وعثليت وأرسوف، ثم استطاع بعدها السيطرة على صفد وتبنين والرملة ، وأخذت عملياته العسكرية تتسع لتشمل مناطق خارج بلاد الشام، فطالت بلاداً كثيرة منها أرمينيا لتأديبها بسبب تحالفها مع المغول ، ولكنه عاد مرة أخرى وركز هجماته على الصليبيين، وأقلق مضاجعهم 0 وفي الوقت نفسه استمر في حرب المغول، مانعاً إياهم من إيذاء الشام 0 ولكن بيبرس لم يستطع اكمال مشروعه المزدوج الذي تمثل في تطهير بلاد الشام من الصليبيين والانتصار على المغول 0 في سنة (676هـ / 1277م) توفي السلطان ليدخل التاريخ كمؤسس حقيقي للدولة المملوكية (31) وقد أعقبه في الحكم الأمير سيف الدين قلاوون

الذي تخلص من الأخطار الداخلية التي واجهته ، وبدأ ينصرف لتصفية المغول والصليبيين الذين ما فتئوا يهددون بلاد الشام وفلسطين بين الفينة والأخرى 0 ففي عام 1287م استولى على اللاذقية ثم حرر طرابلس وبيروت وجبله 0 ولم يبق للصليبيين من أملاكهم في فلسطين سوى عكا وعنتيت، بعدما عقد هدنة معهم سنة (682 هـ/1283م) لمدة عشر سنوات وعشرة أشهر توقف الطرفان بموجبها عن الاعتداء على أراضي الطرف الآخر، وتعهد الفرنجة باخطار السلطان المملوكي عن أية تحركات معادية يقوم بها المغول والفرنجة القادمون من أوروبا 0 والسماح للحجاج النصارى بحرية العبادة وضمان سلامتهم 0 إلا أن الصليبيين خرقوا الهدنة مما دعا قلاوون للزحف على عكا 0 بينما حالت وفاته سنة (689 هـ/1290م) دون ذلك 0 فأكمل الأشرف خليل المهمة وسار نحو عكا على رأس جيش كبير 0 فحاصر المدينة ورماتها بالمجانيق بشكل متواصل 0 وقد بذل الصليبيون جهوداً كبيرة للدفاع عن آخر معقل لهم في فلسطين إلا أن جهودهم لم تفلح في ذلك حيث تمكن الأشرف من دخول المدينة سنة (690 هـ/1291م) وقد فر من استطاع الفرار من الصليبيين في السفن إلى عرض البحر، فغرق بعضها بسبب كثرة ما تحمله من الفارين (32) 0 وبعد الاستيلاء على عكا لم يبق للصليبيين مقام على أرض فلسطين وبلاد الشام 0 فاستولى الجيش المملوكي بسهولة على المراكز القليلة الباقية 0 والواقع أن الفرنجة تركوا مواقعهم ومدنهم وهربوا حال سماعهم بسقوط عكا (33) 0 وبذلك طويت ملحمة الحروب الصليبية التي استمرت مدة تقارب القرنين من الزمان، اشتركت فيها أوروبا كلها بشعوبها وطاقتها، وكانت أغلب

معاركها وساحاتها على أرض فلسطين وعلى يد بعض سلاطين الأيوبيين والمماليك أمثال

صلاح الدين وقطر وبيبرس وقلاوون 0

حاول الفرنج العودة الى بلاد الشام ، فأخذوا يقومون باعمال عدوانية ضد المماليك

منطلقين من قبرص حيناً ومن الدويلات الايطالية حيناً آخر 0 واتصلوا بالنتار وأقاموا معهم

حلفاً للبقاء على حدود دولة المماليك الشرقية في خطر مستمر 0 وظل الأمل طوال العصر

المملوكي يرادو الفرنج بالسيطرة على أجزاء من بلاد الشام 0 فقد شن بيار الأول (767 هـ /

1365م) هجوماً على مدينة الاسكندرية 0 فاجتاحت قواته المدينة لمدة ثلاثة أيام، وقتلت

وأسرت الكثير من الأهالي ثم غادرت المدينة 0 وفي سنة (669 هـ / 1367م) قام الفرنج

بحملة ضد طرابلس الشام ، فدخلوا المدينة ونهبوا بعض الأسواق وحملوا معهم بعض الأسرى

بعد قتل آخرين من سكان المدينة، وفي سنة (813 هـ / 1410م) اجتاحت قواتهم يافا وبات

تهديدهم لبيت المقدس كبيراً (34) 0

كان لهذه الحروب دروس وعبر ونتائج خطيرة على المشرق واوروبا، وعلى فلسطين

بالذات من جميع الجوانب السياسية والاقتصادية والاجتماعية والعمرانية تمثلت في الوحدة

ورص الصفوف ، كما انها أهملت الاهتمام بالاقتصاد من زراعة وصناعة وتجارة لغياب

الأمن ، وأرهقت الفلاحين بالضرائب الباهظة من أجل تمويل الحملات العسكرية 0

أهمية المماليك في التاريخ العربي الاسلامي

بعد استيلاء هولاكو على بغداد تم تدمير المدينة وهدم مبانيها وحرق مكتباتها وتم القضاء على الخلافة العباسية 0 ومما زاد الأمر سوءاً زحف المغول على بلاد الشام واستيلائهم على حلب ودمشق 0 مما أشعر المماليك بالخطر المحدق بهم فتوحدوا وتغلبوا على قوات المغول في عين جالوت 0 ثم ركزوا جهودهم لمقاومة الفرنجة 0 وقاموا بتوجيه ضربات قوية لمراكزهم المتبقية في فلسطين حتى حرروها جميعاً (35) 0 لقد منح هذا النصر الذي تحقق على المغول والصليبيين الشرعية الرسمية والشعبية للمماليك 0 حيث استدعى الظاهر بيبرس أحد أمراء بني العباس الناجين من مجازر المغول وهو أحمد بن الظاهر بن الناصر العباسي الى القاهرة 0 وفي ظل حفاوة واکرام مبالغ فيهما في القاهرة تم تنصيب أحمد بن الظاهر العباسي خليفة للمسلمين أمام حفل ضخم ضم العلماء والفقهاء ورجال الدين والقضاة، الذين تثبتوا من نسب الخليفة الجديد ولقبوه بالمستنصر بالله 0 فقام الخليفة الجديد بتنصيب بيبرس سلطاناً 0 وبذلك حصل بيبرس على الشرعية، وضرب اسم الخليفة على السكة، ودعي له من على المنابر 0 وبهذا تحولت القاهرة الى مركز الخلافة العباسية 0 الى جانب ذلك وسع المماليك سلطانهم البحري عبر البحر المتوسط حيث استولت أساطيلهم على قبرص سنة (830هـ/1427م) بعد أن فرض عليها اداء الجزية السنوية، وانضوت تحت الحكم المملوكي 0 (36) وهكذا تتضح أهمية سلاطين المماليك في رد قوات الفرنجة والتتار في البر والبحر على السواء، واهياء الخلافة الاسلامية بعد سقوط بغداد (37)

أشهر سلاطين المماليك

يلاحظ من خلال دراسة العصر المملوكي أن بعض سلاطين المماليك قد لعبوا دوراً مهماً في أحداث الدولة والمنطقة، والبعض الآخر لم يظهر له دور يستحق الذكر ، وكان عدد كبير منهم في سن الطفولة والصبا لذا لم يكن له أي دور حيث كانت تحكم من خلفه قوى متضاربة 0

المظفر سيف الدين قطز (657 - 658 هـ/1259-1260م)

في البداية تم تعيين الأمير سيف الدين قطز وصياً على ابن أيبك المنصور علي الذي كان في الخامسة عشرة من عمره، وبعد حكم دام أقل من ثلاث سنوات استطاع قطز اقضاء المنصور عن السلطة وحل مكانه بحجة الخطر المغولي الذي بات يهدد مصر بعد العراق والشام 0 الا أن حكمه لم يتجاوز الثلاث سنوات ولم يتجاوز حكمه ثلاث سنوات اذ قتل على يد الظاهر بيبرس أحد قادته عقب انتهاء معركة عين جالوت(38)

الظاهر ركن الدين بيبرس الأول البندقداري(658-676هـ/1260-1277م)

تولى الحكم عقب انتهاء معركة عين جالوت مباشرة وبعد أن أجهز على السلطان قطز وقتله 0 وقد عد المؤسس الحقيقي لدولة المماليك 0 حيث قضى مناوئيه من أمراء المماليك والحكام الأيوبيين في مصر والشام وتمكن من إيقاف الزحف المغولي والتصدي للفرنجة وتحرير أجزاء من الشام وفلسطين 0 كما أنه قد جدد الخلافة العباسية في القاهرة بعد زوالها من بغداد عام (656هـ/1258م) على أيدي المغول، وبذلك أكسب حكمه الصفة

الشرعية (39)0 وكان من انجازات الظاهر بيبرس انه انصرف الى حرب الفرقة الباطنية المعروفة بالحشاشين في سوريا التي تخصص أفرادها منذ فترة طويلة اغتيال الشخصيات الاسلامية السياسية الهامة ، وامتد نشاطها في الدس والاغتيال بحيث أصبحت تشكل خطراً جسيماً على الاستقرار في الدولة ، ومع ذلك فانه لم يعتمد الى حل هذه الجماعة والقضاء عليها كلياً ، بل أثر الاستفادة من سفاكيها في تحقيق أغراضه الخاصة (40) 0

حاول بيبرس ترسيخ مبدأ الوراثة في بيته 0 فأخذ البيعة لأكبر أبنائه المدعو بركة خان غير أن تلك القاعدة لم يعترف بها أمراء المماليك الا لفترة انتقالية، فتم خلع بركة بعد سنتين من حكمه، ونهض بأعباء الوصاية علي سلامش بن بيبرس الذي كان صبيّاً في السابعة من عمره قائداً من قادة الجيش الذين برزوا في عهد بيبرس واسمه قلاوون ، وما هي الا فترة وجيزة حتى استقل هذا بالحكم وخلع سلامش (41)

سيف الدين قلاوون الألفي (679-689 هـ/1279-1290م)

وفق قلاوون مثل الظاهر بيبرس في الدفاع عن سوريا وفلسطين وتوسيع حدود دولته بتحرير أجزاء من بلاد الشام 0 من الفرنجة وبعد وفاته سنة (690 هـ/1290م) ترك السلطة لابنه الأشرف خليل الذي أكمل ما بدأ به والده فحرر عكا عام (690 هـ/1291م) والتي كانت آخر معقل من معاقل الفرنجة في فلسطين 0 كما حاول ارساء نظام الوراثة في حكم مصر والشام الا أن ذلك لم ينجح 0 (42)

الناصر محمد بن قلاوون (693-741هـ/1293-1341م)

جاء بعد أخيه الأشرف خليل وقد لقب بالناصر ، وقد تولى الحكم ثلاث مرات 0 المرة الأولى في التاسعة من عمره لمدة عام واحد ، ثم اغتصب كتبغا فالمنصور لاجين الحكم منه مدة أربع سنوات في فترة تميزت بالفتن والاضطرابات، وأعيد الناصر للسلطنة للمرة الثانية في سن الرابعة عشرة ، فاستخف به الأمراء ، ومع هذا فقد امتد حكمه مدة عشر سنوات، ولم يستطع أن يوقف الاستهانة والاستخفاف به فاضطر للرحيل الى الكرك حيث اغتصب بيبرس الجاشنكير السلطة لمدة عام، الا أن الناس كانوا يدركون أن الناصر أكثر اخلاصاً وكفاءة منه، فكتبوا له يطلبون منه العودة، فعاد الناصر ليتولى السلطة للمرة الثالثة وقد اكتمل نضجاً وخبرة، فحكم أطول من أي سلطان آخر ودامت ولايته ثمانية وثلاثين عاماً 0 فتصدى خلال هذه الفترة الى محاولات المغول اخضاع سورية منزلاً بهم هزيمة نكراء سنة (702هـ/1302م) وذلك في موقعة مرج الصفر جنوب دمشق 0 (43)

توالى على الحكم بعد الناصر سلاطين ضعاف كان كل همهم التمسك بالسلطة ، وكانت المؤامرات تحاك بين الخصوم والأعوان 0 وضعفت الدولة في عهدهم مما أتاح المجال لبروز دولة المماليك الثانية المماليك البرجية 0

الظاهر سيف الدين برقوق (784-801هـ/1382-1399م)

يعد هذا السلطان مؤسس دولة المماليك البرجية 0 وعندما اعتلى العرش لم يعدل الأوضاع، بل زادها سوءاً 0 وازدادت الصراعات والمؤامرات في عهده 0 وقد رفض مبدأ

الوراثة في الحكم، وصار المماليك ينتخبون أوفرهم حظاً من الكفاية والمقدرة ، ومنذ ذلك الحين تقلصت صلاحيات السلطان المطلقة، وانتهت بالتدريج الى العدم (44) أسهم السلطان برقوق اسهاماً كبيراً في اضعاف النظام العسكري المملوكي بترخيصه للمماليك السلطانية السكن في القاهرة والتزوج من نسائها ، مما أدى الى خمول الجيش ونسيانه التقاليد التي اتبعت في عهد الدولة المملوكية الأولى 0 فضلاً عن ابطاله التمرينات العسكرية في الميدان السلطاني اعتباراً من عام (792هـ/1389م) م أثر مؤامرة تعرض لها ، فانحصرت تمرينات الفروسية في الحوش السلطاني في القاهرة (45) 0

الأشرف سيف الدين برسباي (825-841هـ/1422-1437م)

في عهد هذا السلطان نعمت البلاد بشيء من الهدوء والاستقرار حيث استطاع تحقيق نصر على المغول وتأمين حدود الدولة 0 وامتد نفوذ الدولة على البحر الأحمر والأماكن المقدسة في الحجاز ، وقد رفض السلطان برسباي طلب شاه رخ ملك الدولة التيمورية تقديم كسوة الى الكعبة بحجة ان امتياز تقديم الكسوة يعود منذ القدم لحكام مصر الذين اقاموا أوقافاً خاصة لهذا الغرض 0 كما رفض اشراك التيموريين في الاشراف على الأماكن المقدسة بسبب الأهمية السياسية التي يعنيتها الاشراف على هذه الأماكن 0 (46)

الظاهر سيف الدين جقمق (842-857هـ/1438-1453م)

استطاع هذا السلطان انهاء الخلافات بين المماليك والمغول بفعل الهدوء والعلاقة التي صنعها مع المغول حيث تزوج من أميرة مغولية تدعى شاه زاده ودارت بينه وبين الشاه رخ

مكاتبات المودة والاخاء، واستقبل بكل حفاوة سفارة مغولية ترافقها قافلة جمال محملة بالهدايا النفيسة والمسك ، وقد وافق جقمق على ارسال الشاه رخ كسوة للكعبة 0 وظلت أوامر الثقة قائمة بين الدولتين حتى سقوط الدولة المملوكية بيد العثمانيين (47)

الأشرف سيف الدين قايتباي (872-901هـ/1468-1496م)

في عهد هذا السلطان بدأت بوادر الخلاف المملوكي العثماني 0 ففي سنة (885هـ/جري 1481م) اعتلى العرش العثماني بايزيد الثاني، وقد نازعه العرش أخوه الأمير جم وجرى حرب بينهما، فهرب جم على أثرها الى الدولة المملوكية حيث استقبل استقبالا ملكيا من قبل السلطان المملوكي قايتباي، ولم يكتف بذلك بل سيره الى مكة حاجا بعد أن أعطاه الأمان، وهذا الأمر أغضب السلطان العثماني الذي طالب قايتباي بتسليمه الأمير جم ولكن طلبه قوبل بالرفض (48) 0 ولم يكن هذا هو الخلاف الوحيد بينهما، ففي سنة (894هـ/1490م) وقع خلاف على عرش ولاية أبناء الغادر الواقعة في آسيا الصغرى والمشمولة بحماية المماليك، اذ نازع أخ أصغر أخاه الأكبر المستحق للعرش شرعاً ، فوقف المماليك مع صاحب الحق الشرعي بينما انحاز العثمانيون لجانب الآخر، وعندئذ أرسل قايتباي جيشاً ضخماً الى آسيا الصغرى ، وتم اخضاع الولاية الى النفوذ المملوكي وتنشيت عرش حاكمها الشرعي بعد أن منى الجيش العثماني بهزيمة كبيرة في تلك المنطقة ، وتم في العام (895هـ/1491م) ابرام اتفاقية صلح بينهما 0 ويبدو أن الأتراك كانوا في شغل عن ذلك لاهتمامهم بالتوغل في اوربا وحصار بلغراد (49) 0

الأشرف قانصوه الغوري (906-921هـ/1501-1516م)

أدرك قانصوه الغوري مدى الخطر المحدق بدولته من قبل العثمانيين ، فأعد جيشاً كبيراً لملاقاتهم ، وقد دارت مفاوضات بين الطرفين بهدف إعادة أوامر المودة ، إلا أن العثمانيين طلبوا من قانصوه الغوري التنازل عن إمارة ذي الغادر، الذي رفض هذا الطلب الأمر الذي زاد التوتر بين الطرفين 0 والتقى الجيشان المملوكي والعثماني في معركة مرج دابق قرب حلب سنة (921هـ/1516م) 0 وكان النصر في البداية للمماليك إلا أن خيانة نائب حلب خير بيك ونائب دمشق جان بردي الغزالي وبعض قواد المماليك، قلبت الموازين لصالح العثمانيين فأُسفرت نتيجة المعركة عن مقتل قانصوه الغوري وهرب الكثير من جنوده 0 كما انحاز الخليفة وكبار العلماء الى جانب العثمانيين (50) 0

الأشرف طومان باي (922هـ/1517م)

تولى طومان باي السلطة بعد مقتل قانصوه الغوري، وحاول أن يستتعض الهمم ويجمع من حوله الشعب ، فأعلن إلغاء الضرائب عن الفلاحين والبدو لمدة ثلاثة أعوام، ثم قاتل العثمانيين في الريدانية قرب القاهرة مع رجاله قتال المستميت لكن العثمانيين كانوا أكثر تدريباً ومعرفة بشؤون الحرب، وأكثر تسليحاً ، خصوصاً استخدام المدافع 0 وانتهت المعركة بهزيمة المماليك، فهرب طومان باي الى أحد أمراء البدو الذين سلموه الى السلطان العثماني سليم الأول حيث شنقه على باب زويلة في القاهرة 0 وبهذا انتهت دولة المماليك، وبدأ حكم العثمانيين لمصر وبلاد الشام (51) 0

تأثير الاستقرار والأمن على الاقتصاد

أدت الفتن الداخلية غير المنتهية بين طوائف المماليك، والحروب الخارجية التي هددت السلطة المملوكية الى استنزاف الاقتصاد المملوكي تأميناً لمصاريف تلك الفتن والحروب 0 وقد أدى الفساد والضعف الذي أصاب النظام الاقطاعي الى عدم استصلاح الأراضي وعدم اهتمامهم بشؤون الناس 0 ثم أخذوا يفتشون عن أسهل مصادر للدخل 0 فوجهوا أطماعهم الى القطاع الصناعي ، وزاحموا أرباب الصناعة ، ولم يراعوا حرمة الأسواق أو على الأقل المحافظة عليها 0 وتركوا الجند يتصارعون فيها وينهبونها، فكانت الأسواق تقفل أبوابها ابان الفتن، الأمر الذي أدى الى شل الحركة الاقتصادية في البلاد، وبذلك تحولت أكثر المصانع اما الى مساكن أو مخازن واما الى مصانع لصالح السلطان(53) 0 ولما أفرغ المماليك القطاع الصناعي من محتواه ، وأفقدوه دعائمه الرئيسة انتقلوا الى الميدان التجاري يشاركون التجار أرباحهم 0 فكانت الدولة تبتاع بالاكراه معظم المحاصيل والمواد الرئيسة ثم تبيعها من جديد الى تجار التجزئة بأسعار محددة، وغالباً ما كان يعتمد المماليك الى فرض ضرائب استثنائية تتمثل بالمصادرات التي لم تخضع لقانون أو عرف معين يحدد موعد جبايتها ،مما أدى الى هجرة الحرفيين لأعمالهم وتحول التجار الى وسطاء عند السلاطين ، وهذا أدى الى شل قطاعات الاقتصاد ككل 0 ومع ذلك لم تنقطع طلبات الحكام للمال بل كانت تزداد باستمرار ، وكان على الشعب البائس تأمينها، دون أن تضمن له الطبقة الحاكمة الاستقرار والأمن 0حتى أن المقريري يقول بهذا الشأن " وقد نزل بالناس من المماليك بلاء لا

يوصف بين نهب وقتل وسجن وسبي بحيث لو ملك الفرنج ما زادوا في الفساد على ما فعله

المماليك " (54)

عمد المماليك الى غش النقود للحصول على أموال اضافية من فارق النقود القديمة بالنسبة للنقود الجديدة⁰ وتعمدوا تحقيقاً لغايتهم، عدم ضرب الدراهم الفضية، مما أدى الى رخص الدراهم النحاسية⁰ لقد كان ذلك من أسباب التضخم المالي في العصر المملوكي، فبعد أن كان الدينار يزن 25 و 4 غراماً، نقص في بداية الدولة المملوكية الثانية الى 5 و 3 غرام فقل استعمال الناس للدراهم الفضية لندررتها، ولأقبال الصاغة على جمعها واستعمالها في الصناعة ، وجاءت الدراهم النحاسية شبه خالية من الفضة فانخفضت قيمتها (55) 0

نيابات فلسطين في العصر المملوكي

اتبعت دولة المماليك من الناحية الادارية نفس النظام الأيوبي في بلاد الشام ، فكانت بلاد الشام مقسمة الى اقاليم ادارية عرفت بالنيابات، وكانت فلسطين مقسمة الى نيابة صفد ونيابة غزة ونيابة القدس، وكان حكام هذه النيابات من المماليك ، ويختارون عادة من أرباب السيف ، أي من القادة العسكريين، تمييزاً لهم عن أصحاب القلم ، أي من الكتاب والموظفين الاداريين⁰ وكانت هذه النيابات مستقلة عن بعضها البعض ويتبع حاكمها للسلطان مباشرة⁰

(56)

بعدما فتح بيبرس صفد جعلها نيابة قائمة بذاتها تتبع لها أجزاء من شمال فلسطين وجنوب لبنان⁰ حيث كانت تضم عدداً من الولايات منها أرنون (الشقيف) وتبنين وصور وعكا

وعثليت والناصرية وطبرية والشاغور (الجليل الأسفل) وجنين، وأحياناً بيسان 0 (57) وقد أوليت صفد أهمية خاصة، نظراً لموقعها الاستراتيجي ، ولأنها ظلت لفترة طويلة مرتكز العمل المملوكي في مواجهة ما تبقى للفرنجة من مواقع على الساحل خصوصاً عكا 0 وجرى ترميم قلعتها الكبيرة وتوسيعها (58) 0 لقد أثبتت الأحداث المتتالية التي شهدتها النيابة مدى أهميتها كمحطة للانطلاق الى دمشق ومصر أو لمنع تقدم أية قوات تريد مصر من الشام 0 (59)

أصبحت غزة نيابة مستقلة (عام 711هـ/1311م) بعد أن كانت تابعة لنيابة دمشق ، ويبدو أن ضخامة حجم القبائل البدوية في ديار غزة وأعمال هذه القبائل العسكرية كانت من أهم الأسباب التي دفعت السلطة المملوكية الى جعل غزة نيابة مستقلة 0 وقد ضمت نيابة غزة الداروم (دير البلح) والنقب وبيت جبرين والرملة واللد 0 (60)

ربط سلاطين المماليك الأوائل كيانهم بالجهاد، من أجل استعادة الأرض المغتصبة ، وعدوا ذلك واجباً من واجباتهم، بل أول الواجبات، وقد اهتموا بالمظهر الديني لدولتهم، وقربوا الفقهاء ، وأكثروا من بناء المساجد والمدارس 0 وكان من نتائج هذا الاهتمام والرعاية، أن أوجد المماليك ادارة خاصة باسم (ناظر الحرمين) ويقصد بهما القدس والخليل 0 (61) على أن فكرة السيطرة على بيت المقدس ظلت أملاً يراود الفرنج طيلة العصر المملوكي 0 فبعد سقوط عكا قاموا بفرض حصار اقتصادي ضد المماليك، وشنوا الغارات المتكررة على سواحل مصر وبلاد الشام، مثل هجوم الاسكندرية عام (766هـ/1365م)

والهجوم على طرابلس عام (768هـ/1367م) (62) لقد كان الهدف الحقيقي من وراء الهجمات الصليبية اعادة السيطرة على فلسطين وبيت المقدس على وجه الخصوص، وقد أدرك سلاطين المماليك هذا الخطر ، فعمد السلطان شعبان الى رفع مرتبة بيت المقدس بأن جعل نائبها برتبة طبلخاناه 0 (63) ولكن نيابتها ظلت مرتبطة بنيابة دمشق حتى سنة (796هـ/1393م) حين أنعم السلطان الظاهر برقوق على قردم الحسيني بنيابة القدس 0 كما ان خوف برقوق على المدينة المقدسة دفعه الى استحداث نيابة مستقلة فيها كي تستطيع الوقوف في وجه الأخطار الداهمة، لا سيما وأنه كان في طريقه لحرب التتار بزعامة تيمورلنك 0 ولكن يبدو أن كثرة التمردات في نيابة دمشق قد دفع السلطان برقوق الى عمل نيابة في القدس حيث ضمت نيابة القدس ولاية الخليل ونابلس وأحياناً الرملة(64)0

الخاتمة

بنى المماليك امبراطورية اشتملت على مصر وبلاد الشام وأرمينيا وبعض جزر المتوسط ، وقدموا خدمة جليلة للإسلام ، فقد وقفوا في وجه المغول وطردوا الفرنجة من فلسطين 0

في هذا الفصل قمت بدراسة النظام المملوكي مبيناً نشأته وعلاقة أفرادهم فيما بينهم ، وتطور تلك العلاقات، حيث آلت الى الخصومة والتحاسد، وأدت الى تفسخ المؤسسة العسكرية، بعدما استطاعت هذه المؤسسة انهاء الاحتلال الصليبي ، وهزيمة جيوش المغول القادمة من الشرق بعد القضاء على الدولة العباسية ببغداد سنة (656 هـ/1258م)، وكان لا بد لهذا التفسخ من أن يؤثر على المقومات الاقتصادية ويتأثر بها 0

لقد كان الصراع على السلطة بين الأتراك والشراكسة كبيراً ، فمنذ مقتل السلطان الأشرف خليل سنة (692هـ/ 1293م) حاول الأتراك حصر العرش في سلالة قلاوون منعاً لوصول الشراكسة للحكم ، وحاولوا دفع سلاطين ضعاف الى العرش كي يتسنى لهم حكم البلاد واستغلال مواردها الاقتصادية لحسابهم الخاص 0 وربما كان ذلك في صالح الشراكسة 0 حيث أن الحال تغير ، وأصاب الدولة شلل اقتصادي عام، وازدادت الفتن فيها، مما حتم تغيير السلاطين الأتراك 0 غير أن وصول الشراكسة للحكم لم يغير من سوء الوضع الاقتصادي ولم يوقف تدهور المؤسسة العسكرية ، وسارت الدولة المملوكية الثانية على خطى ارتكزت على استنزاف الطاقات الاقتصادية في البلاد 0 ومع ازدياد الخلافات السياسية مع

العثمانيين اضطر المماليك الى تنظيم حملات عسكرية ، جندوا فيها أعداداً كبيرة من أهالي المدن الفلسطينية ، وصادروا الكثير من المؤن والدواب والأموال لاسناد هذه الحملات، وتزامن كل هذا مع تدهور المؤسسة العسكرية 0 فكانت معركة مرج دابق معركة فاصلة ، حيث انهارت دولة المماليك 0 فدخلت مصر وبلاد الشام ومن ضمنها فلسطين تحت الحكم العثماني 0

الهوامش

- 1- الياس شوفاني 0 تاريخ الشعوب الاسلامية 0 (مؤسسة الدراسات الفلسطينية : 1982، ط 2) 0 ص 222 - 234 0
- 2- تقي الدين أحمد بن علي المقرئ 0 المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار 0 (القاهرة: مطبعة بولاق ، 1952) 0 ص 265 0
- 3- أبو المحاسن ابن تغري بردي 0 النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة 0 (القاهرة: وزارة الثقافة والارشاد القومي، 1963) 0 ج 1، ص 157 0
- 4- أبو المحاسن، ص 157 0
- 5- انطوان خليل ضومط 0 الدولة المملوكية 0 (بيروت: دار الحداثة ، 1980) ص 8 0
- 6- ضومط ، ص 9 0
- 7- ضومط ، ص 9 0
- 8- ابن حجر العسقلاني 0 الدرر الكامنة 0 القاهرة: 1966 0 ص 450 0
- 9- فلييب حتي 0 تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين 0 (بيروت: دار الثقافة ، 1959) 0 ص 264 - 279 0
- 10- ضومط، الدولة المملوكية، ص 8 0
- 11- امين علي الخولي 0 العلاقات بين النيل والفلوفا في القرن الثالث عشر والرابع عشر 0 (موسكو: 1962) 0 ص 35 0

- 12- ضومط، الدولة المملوكية، ص 89 0
- 13- ضومط ، 90 0
- 14- ضومط ، ص 88 0
- 15- شوفاني ، الشعوب الاسلامية، ص 222- 234 0
- 16- شوفاني ، ص 227 0
- 17- ضومط، الدولة المملوكية، ص 8 0
- 18- ضومط ، ص 8
- 19- ابن الفرات 0 تاريخ الدول والملوك 0 (بيروت: منشورات الجامعة الأمريكية، 1936)
- 0 ج 9 ص 188 0
- 20- سيمينوفا 0 صلاح الدين والمماليك 0ترجمة حسن بيومي 0 (القاهرة: المشروع القومي للترجمة، 1988) 0 ص 29- 38 0
- 21- سيمينوفا ، ص 33 0
- 22- شوفاني ، الشعوب الاسلامية، ص 229 0
- 23- شوفاني ، ص 232 0
- 24- ابراهيم طرخان 0 النظم الاقطاعية 0 (القاهرة : الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1968) 0 ص 75 0

- 25- تقي الدين أحمد بن علي المقرئزي 0 السلوك لمعرفة دول الملوك 0 (القاهرة: لجنة التأليف والترجمة ، 1973) 0 ج 1 ص 430- 431 0
- 26- فاروق عمر فوزي 0 فلسطين في العصر الاسلامي الوسيط 0 (رام الله: دار الشروق للنشر والتوزيع، 1999) 0 ص 219- 222 0
- 27- شوفاني ، الشعوب الاسلامية، ص 222- 234 0
- 28- احمد الشلبي 0 موسوعة التاريخ الاسلامي والحضارة الاسلامية 0 (القاهرة: مكتبة النهضة المصرية ، 1977) 0 ط 3 ص 220- 221 0
- 29- ابن عبد الظاهر 0 الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر، تحقيق عبد العزيز الخويطر 0 (الرياض: 1976) 0 ص 118 0
- 30- ابن عبد الظاهر ، ص 22 0
- 31- فوزي، فلسطين في العصر الاسلامي الوسيط، ص 223 0
- 32- ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ص 706 0
- 33- سعيد عبد الفتاح عاشور 0 الحركة الصليبية 0 ج 2 ص 1183- 1184 0
- 34- هادية وبرهان الدجاني 0 الصراع الاسلامي الفرنجي على فلسطين في القرون الوسطى 0 (بيروت: مؤسسة الدراسات الفلسطينية، 1994) 0 ص 398- 399 0
- 35- فوزي، فلسطين في العصر الاسلامي الوسيط، ص 227 0

36- سعيد عبد الفتاح عاشور 0 الظاهر بيبرس 0 (المؤسسة العامة للتأليف والنشر ، 1963)

0 ص 36- 44 0

37- عبد السلام التدمري 0 "فتح قبرص في عصر المماليك " (مجلة العربي، العدد 8،

1979) 0 ص 116-122 0

38- فوزي، فلسطين في العصر الاسلامي الوسيط، ص 219 0

39- الشلبي، موسوعة التاريخ العربي والحضارة العربية، ص 209 0

40- كارل بروكلمان 0 تاريخ الشعوب الاسلامية 0 ترجمة أمين فارس 0 (بيروت: 1974) 0 ط

6 0 ص 366-367 0

41- ضومط، الدولة المملوكية، ص 362- 374 0

42- فوزي، فلسطين في العصر الاسلامي الوسيط، ص 224 0

43- حتي 0 تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين، ص 272 0

44- بروكلمان، تاريخ الشعوب الاسلامية، ص 368- 369 0

45- المقرئزي 0 المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار 0 مصدر سبق ذكره، 229 0

46- عبد الكريم رافق 0 العرب والعثمانيون 0 (عكا: مكتبة ومطبعة السروجي للطباعة

والنشر ، 1978) 0 ط 2 0 ص 17 0

47- انور زقلمة 0 المماليك في مصر 0 (القاهرة : مكتبة مدبولي، 1995) 0 ص 64-65

48- أنور زقلمة ، ص 96 0

- 49- أنور زقلمة ، ص 97 0
- 50- أنور زقلمة ، ص 104 0
- 51- شلبي 0 موسوعة التاريخ العربي والحضارة الاسلامية، ص 235- 236 0
- 52- ابن اياس 0 بدائع الزهور في وقائع الدهور 0 (القاهرة: كتاب الشعب، 1960) 0 ج 4 ، ص 486 0
- 53- ضومط 0 الدولة المملوكية، ص 366- 367 0
- 54- المقرئزي 0 المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار 0 مصدر سبق ذكره، ج 4 0 ص 237 0
- 55- المقرئزي ، ج 1 ، ص 110 0
- 56- الدجاني، الصراع الاسلامي الفرنجي على فلسطين في القرون الوسطى، ص 394 0
- 57- شوفاني ، تاريخ الشعوب الاسلامية، ص 229 0
- 58- شوفاني ، تاريخ الشعوب الاسلامية، ص 229 0
- 59- الموسوعة الفلسطينية 0 الدراسات التاريخية، المجلد الثاني 0 (بيروت: 1990) 0 ص 566
- 60- شوفاني ، تاريخ الشعوب الاسلامية، ص 229 0
- 61- فوزي، فلسطين في العصر الاسلامي الوسيط، ص 219- 228 0
- 62- المقرئزي 0 السلوك لمعرفة دول الملوك 0 ج 3 0 ص 109 0
- 63- احمد علي القلقشندي 0 صبح الأعشى في صناعة الانشا 0 (القاهرة: دار الكتب ، 1920)، ج 4 0 ص 199 0
- 64- ابو اليمى مجير الدين الحنبلي 0 الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل 0 تحقيق محمد بحر العلوم 0 (النجف: 1968) 0 ج 2 0 ص 282 0

الفصل الثاني : الفئات الدينية

المقدمة

لقد سكنت فلسطين مجموعات دينية ، اهمها المسلمون و النصارى و اليهود 0 سوف
اقوم في هذا الفصل بالتركيز على هذه المجموعات و على العلاقات بينها ، وسوف الجأ الى
كتابات الرحالة والزوار والسياح الذين زاروا فلسطين قبل واثناء الحكم المملوكي، وسجلوا

ملاحظاتهم التي تبين نسبة كل مجموعة ، ومدى اهمية دورها السياسي والاجتماعي في

فلسطين في الفترة المملوكية 0

لا شك ان الدراسات الحديثة التي اهتمت بسكان فلسطين خلال الفترة الاسلامية قليلة، وخاصة الفترة المملوكية مما جعل المؤرخين يختلفون في امور كثيرة حول موضوع سكان فلسطين ونسبة كل مجموعة الى الأخرى 0 فنجد البعض يدعي ان نسبة اليهود كانت كبيرة ، والبعض الآخر يحاول نفي ذلك ، كما يدعي البعض أمثال فيليب حتي وجيل أن النصارى قد تعرضوا للاضطهاد والطرده والمعاملة السيئة ، فيما تدل الكثير من الحوادث على عكس ذلك

0

المسلمون

لقد نتج عن الاحتلال الفرنسي للمدن الفلسطينية ، وخاصة خلال السنوات الاولى قتل عشرات الالاف من المسلمين، وتهجير اعداد كبيرة منهم من مناطق سكنهم الى مناطق تقع تحت السيطرة الاسلامية 0 فالمصادر تتكلم عن مذابح كثيرة اقترفها الصليبيون بحق سكان عكا وحيفا وقيسارية 0 وبالنسبة للقدس فقد قتل ما بين 20000- 70000 نسمة 0 هذا اضافة الى هجرة سكان عدد من المدن الفلسطينية عند اقتراب جيش الفرنجة الى المناطق المجاورة التي تقع تحت السيطرة الاسلامية مثلما حصل مع سكان يافا والرملة وبيسان وطبريا 0(1)وبهذا نستنتج ان عدد المسلمين عشية احتلال الفرنجة كان اكبر بكثير منه خلال الفترة اللاحقة 0 كما ان عدداً لا بأس به منهم قد تنصر 0 ومما قلل من نسبة المسلمين في البلاد في الفترة

الصليبية أن أعداداً كبيرة من النصارى خصوصاً من أوروبا الغربية قد هاجرت و استوطنت فلسطين خلال فترة حكم الفرنجة⁰ وعلى الرغم من التغييرات الديموغرافية هذه إلا أن المسلمين ظلوا يشكلون الغالبية العظمى من السكان⁰

بعد دخول صلاح الدين لفلسطين وتحرير مدينة القدس اتخذ إجراءات عدة لتصحيح الوضع السكاني ، فأخذت أعداد من السكان المسلمين يعودون أو يهاجرون إلى القدس ومدن أخرى، مما أعاد التوازن السكاني إلى طبيعته الأولى ، وربما زاد عما كان عليه في السابق⁰

(2)

يظهر لنا بأن غالبية سكان الجليل خلال الفترة الايوبية كانوا من المسلمين، حيث يقول عماد الدين الاصفهاني الذي كان كاتباً للقائد صلاح الدين الايوبي "فإن أعمال جبل عامل مجبولة على الشر وأهلها وإن كانوا مسلمين كانوا أعواناً لأهل الكفر " ، ويؤكد هذه المعلومة الرحالة العربي ابن جبير الذي زار فلسطين عام (581هـ/1185م)، كما يؤكد اسامة بن منقذ بشأن سكان ريف عكا أو منطقة غرب الجليل⁰ وقبل ذلك أكدها وليم الصوري رئيس اساقفة صور⁰ بالنسبة لوصف الاصفهاني سكان الجليل بالشر فربما لانهم ادركوا خطر الفرنجة ووجدوا ان من الافضل لهم الانحياز لجانبهم لا سيما وأنهم كانوا معرضين للقتل والذبح من قبلهم أو ربما لأن الفرنجة كانوا يعاملوهم معاملة أفضل من معاملة السلطات الاسلامية، علماً أنهم كانوا شيعة والسلطات الاسلامية كانت سنية⁰ أما الساحل فقد كان سكان مدنه من الفرنجة في حين كان سكان القرى والضياع من المسلمين، ويؤكد هذا الأمر

لابيدوس حيث وجدت أن العرب المسلمين الذين عاشوا في الريف يطغون على عدد السكان 0 (3).

لم يختلف الوضع السكاني في العصر المملوكي كثيراً عن الفترة السابقة سوى ان اعداداً كبيرة من المسلمين قد عادوا للسكن مجدداً في المدن الفلسطينية وخصوصاً مدينة القدس، حيث أن عدداً من السكان القدامى فضلوا العودة الى مناطقهم ، بالاضافة الى حدوث هجرة اسلامية الى المنطقة للدفاع عن المقدسات والسكن بمحاذاتها 0 وخصوصاً من منطقة المشرق ولقبوا بالمشاركة ومن الأندلس وشمال افريقيا ولقبوا بالمغاربة ولعب السلاطين المماليك دوراً في تشجيع المسلمين على السكن في المدن الفلسطينية 0 ففي عام (658هـ — / 1260م) زار الظاهر بيبرس فلسطين والقدس ، مما أعطى دفعة قوية لزيادة عدد السكان، فقد وصل عدد سكان القدس في تلك الفترة الى 40000 نسمة، وهذا الرقم الكبير لم يصل اليه سكان القدس الا في بداية القرن العشرين 0 كما ان السلطان قايتباي قد زار المدينة عام (879هـ / 1475م) وتكررت الزيارة عدة مرات، وهذا أعطى المدينة أهمية كبيرة 0 (4)

ان الزيادة في أعداد السكان في مدن فلسطين يعود الى الاستقرار والأمن الذي نعمت به البلاد في بداية الحكم المملوكي، فقد جاء المهاجرون الى فلسطين من داخل بلاد الشام ومن العراق ومن الاندلس ومن شمال افريقيا الذين اطلق عليهم اسم المغاربة وقد سكنوا القدس وكانت لهم حقوق وامتيازات عديدة ومؤسسات مستقلة مثل جامع المغاربة وزاوية المغاربة والزاوية الافضلية 0 (5) ويلاحظ أن مسلمي المغرب الاسلامي قد أولوا الحرم القدسي

الشريف مكانة كبيرة ، فكان الذي يقوم بأداء فريضة الحج ، لا يرى ان هذه الفريضة قد اكتملت لديه ان لم يتم زيارة القدس 0 كما أن حرب الاسترداد في الاندلس للأسبان قد دفعت عدداً كبيراً من الأندلسيين الى الهجرة 0 واستقرت أعداد كبيرة منهم في فلسطين وخاصة في القدس، وكان بعضهم من العلماء وذوي الخبرة الادارية وكانوا جميعاً من اتباع المذهب المالكي ، مما أدى الى استحداث مذهب قاض للمالكية مثمناً حدث سنة (802 هـ/1399م) 0 كما استقر بعض العراقيين القادمين من بغداد وحرّان وبعض مدن الشام الشمالية والشرقية في القدس ، وأطلق عليهم اسم الحنابلة 0 وادى هذا الوضع الى استحداث منصب قاض للحنابلة ، إضافة الى منصب قاضي القضاة الشافعي 0 علماً أن غالبية سكان فلسطين كانوا وما يزالون من الشافعيين 0 لهذا اقام النظام المملوكي الحكم بين المسلمين على المذاهب السنية الأربعة، وقد جرى تعميم ذلك في غالب نيابات الدولة باستثناء القدس التي لم يطبق فيها هذا الاجراء الا في سنة (748هـ/1382م) ، أما قبل ذلك فقد كان هذا الاجراء مقتصرأ على مذهب واحد هو المذهب الشافعي 0 وهذا الاستحداث عممه السلطان برقوق في كافة نيابات الدولة باستحداث منصب قضاء الحنفية 0 (6)

توافد على فلسطين أعداد من الحجاج المسلمين، وكان تعداد هؤلاء الحجاج لا يقل عن عشرين ألفاً في كل سنة ، وقد شكل هؤلاء الحجاج سواء المسلمين أو المسيحيين مصدر رزق للسلطات المملوكية والمواطنين 0 كما ان البعض من الرحالة والمؤرخين قد اعتبر هؤلاء

الحجاج ضمن أعداد السكان الذين يقيمون بشكل دائم وثابت في فلسطين مما خلق ارباكاً لدى

المؤرخين بشأن أعداد سكان المدن 0 (7)

أخذت أعداد السكان وبضمنهم المسلمين في فلسطين بالتناقص في الفترة الأخيرة من

حكم المماليك ، وذلك بفعل سوء المواسم الزراعية والصراعات المملوكية واقدام السلطات

المملوكية على تجنيد العناصر الشابة واستخدامها في الحملات الخارجية لقتال العثمانيين 0

ولا شك أن الأمراض والطواعين التي انتشرت في فلسطين قد قصت على جزء كبير من

سكان فلسطين، لا سيما أن هذه الأوبئة كانت تتكرر خلال فترات متقاربة الأمر الذي ساهم

بالفتك بالسكان وعلى وجه الخصوص بأهالي غزة والأغوار والرملة والقدس 0 حيث أصابت

الطواعين المنطقة في السنوات (729هـ / 1349م) و(825هـ — 1421م) و(833هـ —

1429م) و(841هـ / 1437م) 0 (8)

فقد ذكرت المصادر ان مدينة القدس قد تعرضت لوباء الطاعون سنة (897هـ /

1491م) وأنه كان يموت في كل يوم ثلاثون أو أربعون شخصاً، وفي بعض الأحيان

خمسون، وقد استفحل هذا الوباء في شعبان من تلك السنة حتى بلغ عدد الموتى في اليوم

الواحد مئة ، وفي أحد الأيام وصل الى مئة وثلاثين شخصاً، وكان من بين الضحايا نائب

السلطان خضر بيك السيفي وزوجته وابنته، وقد ماتوا كلهم في تسعة ايام ، وقد استمر الوباء

أربعة شهور وعشرة أيام مما تسبب بموت عدد كبير من سكان القدس 0(9) كما كانت غزة

من بين النيابات التي تأثرت بالطاعون مما أدى الى نقصان سكان النيابة 0 ففي سنة (

749هـ/ 1348م) انتشر فيها الطاعون وأدى الى اغلاق أسواقها 0 وشمل الموت أهل الضياع المجاورة 0 ويذكر نائب غزة الأمير (ايتمش عبد الغني) موت اثنين وعشرين ألف انسان، وهذا يشير الى العدد الكبير لسكان النياية 0(10)

وفي نابلس شكل المسلمون الغالبية العظمى للسكان 0 وقد كان سكان نابلس يعتنقون المذهب الشيعي في العصر الفاطمي ليتحولوا للمذهب السني مع بداية الحكم الأيوبي والمملوكي خاصة بعد الجهود الكبيرة التي بذلها المماليك في بناء المدارس والزوايا والتكايا السنية بهدف تدعيم هذا المذهب 0 كما انّ المماليك شجعوا التصوف في نابلس والقدس والخليل وغيرها من المدن الفلسطينية ، ربما بهدف صرف أنظار السكان عن مساوئ الحكم المملوكي 0 وبهذه الطريقة حققوا غرضين: أقاموا تحالفاً بين الصوفية والنظام ، وأبعدوا السكان من الوقوف ضدهم 0 (11)

في القرن العاشر الهجري/السادس عشر الميلادي أي في بداية الحكم العثماني كانت تسكن فلسطين أغلبية اسلامية 0 فحسب الاحصائيات العثمانية بلغ عدد السكان في صفد (11000) نسمة شكل المسلمون حوالي (6134) نسمة والباقي من اليهود، وكان يسكن في القدس حوالي (5000) نسمة شكل المسلمون حوالي (3128) نسمة من مجموع السكان، وكان يسكن في غزة (4444) نسمة شكل المسلمون حوالي (2679) من مجموع السكان، وكان يسكن في نابلس حوالي (5000) نسمة شكل المسلمون حوالي (3980) نسمة، وتواجدت أغلبية مسلمة في كل من كفر كنا والمجدل واللد 0 (12)

شهدت فترة الحكم العثمانية الأولى في فلسطين تحولات وتغيرات في هجرة السكان من الارياف والقرى الى المدن أو قدوم جماعات من البلاد الاسلامية المجاورة 0 (13)

لقد كان زوال الحكم المملوكي سبباً في ازدياد عدد السكان بفعل تحسن ظروف حياتهم الاجتماعية والاقتصادية الذي نجم عن توفر الأمن والهدوء 0

النصارى

أسلم الجزء الأكبر من نصارى فلسطين خلال الفترة التي سبقت احتلال الفرنجة للبلاد التي امتدت لأكثر من اربعة قرون ونصف، وقد زادت وتيرة اعتناق الاسلام خلال فترات اضطهاد اهل الذمة واثناء الحروب والفتن اكثر منها في فترات السلام والامن.

كان سكان فلسطين النصارى عشية احتلال الفرنجة للبلاد اقلية صغيرة الا أنهم كانوا منتشرين في غالبية مناطق فلسطين 0 أما أهم مراكزهم فكانت منطقة القدس وبيت لحم والخليل والناصرة 0 ونجدهم أيضاً في المدن الرئيسية الأخرى مثل الرملة واللد وغزة وبيت جبرين وطبريا وعكا وسبسطية ونابلس 0 وقد كان لهم أديرة كثيرة تركز أكثرها في منطقة القدس والناصرة وبيت لحم والمدن الرئيسية 0 وهذا الأمر لم يتغير منذ تلك الفترة وحتى وقتنا الحاضر 0 (14)

تواجد المسيحيون في القدس قبل وبعد الفترة الصليبية ، ويستشف مما ذكره وليم الصوري أن أعداد المسيحيين في بداية الفترة الصليبية كان صغيراً جداً حيث أنهم بعدما احتلوا مدينة القدس شجعوا هجرة النصارى اليها من أجل ملء الفراغ الذي تركه قتل المسلمين

واليهود وذلك لحاجتهم لكوادر بشرية من أجل القيام بالمشاريع اللازمة وتقديم الخدمات للفرنجة، لأننا كما نعلم خلت من السكان ولم يتواجد فيها الا الجيش الصليبي، وهذا ما عبر عنه أيضاً الملك بلدوين الأول بشكل عملي حين نقل قسماً من سكان وادي موسى والبقاء وعمّان النصارى الى القدس 0 فقد وعد الملك المهاجرين بحياة أفضل وكان قد استقبلهم في القدس مع زوجاتهم وأولادهم وقطعانهم، وقد وطنهم في حارة المشاركة التي تقع الى الشرق من باب العمود 0 (15)

لقد طرأت بعض الزيادة على أعداد النصارى في العصر المملوكي في فلسطين وخاصة في القدس وكان معظمهم من العرب المحليين، اضافة الى بعض ممثلي مختلف الكنائس المسيحية من غير العرب وأهمهم الأرمن والأحباش والجورجيين والهنود والاغريق واللاتين ، وكانت المعاملة الانسانية التي حظي بها هؤلاء من قبل السلطات المملوكية سبباً في ازديادهم، حيث تمتعوا بالاعفاءات الضريبية ومارسوا طقوسهم بحرية تامة، وكان أكثرهم من الأقباط واليعاقبة العرب 0 وقد بلغ عدد المسيحيين في مدينة القدس أكثر من 10% من مجموع سكان المدينة (16) وفي العصر المملوكي شكل النصارى في نيابة غزة نسبة لا بأس بها من سكان النيابة، وتعود جذور هؤلاء النصارى الى مناطق متباينة مثل الشوبك ووادي موسى في الأردن والأقباط الذين قدموا من مصر، وجماعات مسيحية قد وفدت الى غزة ومناطقها من منطقة القدس والخليل 0 ومن عائلاتهم جماعة رزق الله وجماعة وادي موسى وجماعة دالو وجماعة خليل وقد توزعوا على منطقة غزة بأكملها ، وهذه الجماعات لجأت الى غزة

ومناطق أخرى شأنها شأن الجماعات الأخرى التي كانت تنتقل في البلاد من أجل البحث عن سبل أفضل للحياة 0 وربما اكتظاظ القدس والخليل بالسكان ووجود خلافات بين الطوائف قد دفعهم للهجرة الى نيابة غزة (17) 0

كانت نابلس تتبع نيابة القدس وقد عاش فيها عدد قليل من النصارى وكانوا يتبعون لطوائف مختلفة من الكاثوليك والأرثوذكس، وقد قدروا بحوالي ثماني عشرة عائلة فقط 0 (18)

وإذا ما ألقينا نظرة على أعداد النصارى في فلسطين في منتصف القرن السادس عشر أي بعد انتهاء الحكم المملوكي بسنوات قليلة، ومن خلال السجلات العثمانية ، وخلال العمل الذي قام به الدكتور كمال عبد الفتاح وهوتيروت، يتضح لنا أن عدد المسيحيين كان أكبر من عدد اليهود 0 وقد وجد نصارى في غالبية مدن وقرى فلسطين وكان النصارى أقلية صغيرة في جميع الألوية عدا لواء بيت لحم وبيت جالا حيث تواجد فيهما المسيحيون بكثرة 0 وتواجدت أقلية صغيرة من المسيحيين في الخليل ولكنها أخذت بالتناقص حيث هاجر عدد منهم الى غزة والقدس 0 وان آخر وجود للمسيحيين في الخليل يعود الى سنة (1540م) 0 كذلك الحال سكن المسيحيون في الريف الفلسطيني ولكن نسبتهم في الريف الى مجموع السكان لم تكن كبيرة حيث ذكرت بعض الأقليات المسيحية في مناطق بيت ريماء وعين كارم وعابود واقرت وبرقة وبيت جبرين الا أن بعض هذه المناطق خالية حالياً من المسيحيين 0 وهذه

المعلومات التي قدمها لنا عبد الفتاح وهوتيروت ليست بعيدة عن العصر الذي سبقه وهو

عصر المماليك 0(19)

يتضح من خلال الدراسة التي قدمها كمال عبد الفتاح وزميله أن صدد قد خلت من

السكان المسيحيين في مطلع القرن السادس عشر رغم أنهم تواجدوا فيها قبل هذا التاريخ 0 (

(20)

وفي دراسة للباحثة هدى لطفي التي قامت بأخذ عينة عشوائية للوفيات ولمدة ثلاث

سنوات مختلفة عن السكان في القدس في الفترة المملوكية كانت النتائج مطابقة لما تحدثنا عنه،

حيث كان عدد المسيحيين ثمان وفيات مقابل ثلاث وفيات لليهود وثلاثين حالة وفاة للمسلمين 0

(21)

نشأ بعض الخلافات بين المسيحيين والمسلمين واليهود في فلسطين ، وكانت

السلطات المملوكية عادة ما تأخذ موقف الحياد، ولعل أشهر هذه الخلافات ما دار حول ملكية

ما عرف باسم "قبر النبي داود" في داخل مباني دير الفرنسيسكان فوق جبل صهيون في

القدس 0 فقد حدث سنة (616هـ / 1219م) أن سمحت السلطات الأيوبية للرهبان الفرنسيسكان

ببناء دير لهم فوق جبل صهيون للعبادة ، وقد سعوا بعدما توطدت أحوالهم واعترف بهم

رسمياً ودينياً الى الحصول من السلطات الاسلامية على حق رعاية الأماكن المقدسة فوق

الجبل ، وعلى الأخص دير الفرنسيسكان وقاعة الحواريين 0 وقد ترسخ لدى اليهود وجود

بقايا مدينة داود مع مقابر بعض الرسل والأنبياء فوق ذلك الموضع 0 ولما أقام الفرنسيسكان

كنيسة هناك واستخدموا القبو لدفن موتاهم أخذ اليهود يطالبون بتملك القبو ونزعه من الرهبان الفرنسيين، فتدخل القضاء الاسلامي والسلطين المماليك لفض النزاع الذي استمر الى ما بعد سقوط الدولة المملوكية وقيام الحكم العثماني 0 ويبدو أن الحل الذي فرض على الطرفين والذي تمثل بالحل الوسط لم يرض الطرفين مما أدى الى تجدد النزاع في الفترة اللاحقة 0

(22)

كانت السلطات المملوكية ترعى مصالح المسيحيين وتقدم لهم المساعدة، فقد اعتنى السلطان برقوق بالمسيحيين اللاتين وغيرهم ، وكذلك تابع الأمر ابنه فرج حيث سمح سنة (813 هـ / 1410م) ببناء كنيسة في بيت لحم ، وتم احضار الأخشاب من أوروبا ونقلها بالبحر الى يافا ثم تم نقلها الى بيت لحم على ظهور الدواب وقام السلطان خشقدم سنة (869 هـ / 1465م) باصدار مرسوم يقضي بتعويض المسيحيين عما هلك من منافعهم وأرزاقهم وعدم معارضتهم في أشغالهم بسبب تعديات المسلمين عليهم وتخريب ممتلكاتهم وهذا يعني أنهم كانوا يتعرضون لمضايقات من قبل المسلمين وكانت تتعرض ممتلكاتهم للتخريب في بعض الأحيان وقد حصلت الطائفة الأرمنية على مرسوم حماية من السلطان جقمق سنة (854 هـ / 1449م) 0 كما أن هناك مرسوم آخر أصدره السلطان قانصوه الغوري سنة (919 هـ / 1513م) أي قبيل سقوط الدولة المملوكية بفترة وجيزة ، وقد أمر بنقش المرسوم على بلاطة الصقها على باب كنيسة القيامة حيث أمر فيه بمعاملة المسيحيين اليعاقبة والملكانية والأقباط معاملة حسنة ولائقة ، وأسقط عنهم ما كان يجبى من رسوم عند قيامهم بالحج 0

ويبدو أن سلاطين المماليك لم ينظروا الى جميع المسيحيين بعين المساواة ، لقد شملوا النصارى الشرقيين بالرعاية والاهتمام حيث كانوا أقرب في طباعهم وعاداتهم الى المسلمين منهم الى النصارى الكاثوليك الأوروبيين 0 لقد كان هذا المرسوم الذي أصدره السلطان جقمق ينص على حماية ممتلكاتهم ويمنع حكام المدينة من التعرض لهم 0 وما زال هذا المرسوم منقوشاً حتى يومنا هذا على لوح رخامي في المدخل الجنوبي لحارة الأرمن 0 (23)

في بعض الحالات كان يحدث توتر بين المسلمين والمسيحيين لأسباب دينية واقتصادية وعسكرية وسياسية، فقد اعتاد النصارى القيام باحتفالات كبيرة في القدس وبيت لحم والناصره ، وكانوا يحملون الصلبان ويجوبون الشوارع بمواكب ضخمة بمناسبة أعيادهم، وقد استغل بعض المسلمين هذه المواكب للتحريض عليهم بحجة مخالفة الاتفاقيات التي تم التوصل اليها عند الفتح الاسلامي والتي نصت على ضرورة عدم اظهار النصارى للصلبان في الأماكن العامة وقد نجم عن أعمال التحريض هذه بعض الانتفاضات الاسلامية العنيفة ضد النصارى 0 في الواقع عبرت هذه الأعمال عن استياء المسلمين من كثرة اشغال النصارى للوظائف الحكومية(24) حيث يذكر المقدسي ان أكثر الأطباء والكتبة في فلسطين نصارى (25)0 وقد استمر هذا الأمر على مدى الفترتين الأيوبية و المملوكية مثل الطبيب أبي سليمان ابن أبي فانة الذي ترك بعد وفاته أربعة أطباء من أولاده كانوا يشرفون على علاج بعض السلاطين 0 كما برز الطبيب مذهب الدين أبو سعيد الذي أسلم في عهد المماليك وتسمى بمحمد ، والطبيب موفق الدين يعقوب الذي توفي سنة (681هـ / 1282 م) 0 (26)

تعرض النصارى الى معاملة سيئة بسبب اتهامهم بالولاء للدول المسيحية التي حاربت من أجل السيطرة على فلسطين 0 وعليه فقد عانوا من التعديات من قبل المسلمين في بعض الأحيان 0 وعلينا هنا أن نفرق بين المعاملة التي كان يلقاها النصارى من السلاطين كحكام والمسلمين كشعب 0 ففي زمن السلطان الظاهر بيبرس كان يعيش في القدس الشيخ خضر بن أبي بكر المهراني وكان يحرض على النصارى ، وقد قام مع عدد من أصحابه بهدم كنيسة المصلبة وقتل راعيها وحولها الى زاوية اسلامية ومسجد 0 ولم تعد الكنيسة الى سابق عهدها الا بعد تدخل حاكم جورجيا سنة (712 هـ/1305م) 0 وكانت تحدث مشاكل بين المسلمين والنصارى بسبب ردات الفعل لبعض الأحداث منها ما تعرض له مرسى الاسكندرية سنة (772 هـ/1365م) على يد قراصنة البحر المسيحيين الأمر الذي أدى الى اعتقال جماعة من الفرنسيين من كنيسة جبل صهيون وكنيسة القيامة وكنيسة المهد وارسالهم مكبلين بالقيود الى القاهرة واغلاق كنيسة القيامة من قبل المسلمين التي لم يتم فتحها الا بعد مساع كثيرة 0 وفي سنة (862 هـ/1458م) تهدمت كنيسة الى الجنوب من كنيسة القيامة نتيجة زلزال ، وحينما سعى النصارى لدى نائب المدينة كي يسمح لهم ببنائها من جديد وبدأوا بعمليات الترميم قام بعض المسلمين بالوشاية للسلطان عما أسموه بعملية الخيانة هذه التي يقوم بها نائب المدينة بمراعاته مشاعر النصارى ، فأعطيت الأوامر بوقف عمليات الترميم وبهزم ما تم بناؤه وذلك بدعوى انها مجددة 0 (27) وفي سنة (896 هـ/1490م) تجدد الصراع بين المسيحيين واليهود على غرفة العشاء على جبل صهيون الذي ذكرناه سابقاً 0 وتدخلت السلطات

المملوكية وصادرت المكان وحولته الى مسجد بعد أن تم اخراج رفاة الرهبان الذين كانوا مدفونين في المكان 0 (28) وقد فرضت على النصارى شروط مهينة مثل منعهم من العمل في دواوين الدولة كما كان يحرم عليهم علو بنيانهم فوق بنيان المسلمين 0 وكان عليهم أن يركبوا الحمير 0 وطبق الشيء نفسه على المسيحيات 0 وكانت تجبى منهم ضريبة الجوالي أي الجزية 0 (29) رغم كل هذا إلا أن الهدوء والاخاء والمحبة ساد بين النصارى والمسلمين لفترات طويلة 0 فالمصادر تذكر أنه في العام (722هـ/1317م) نظمت صلاة استسقاء مشتركة للمسلمين والنصارى واليهود بسبب انحسار الأمطار لفترة طويلة 0 كما أن الرحالة اسحاق بن تشلو الذي زار فلسطين سنة (739هـ/1334م) روى أن الكثير من المسلمين رجال ونساء وعلى وجه الخصوص النساء يدخلون كنيسة قبر العذراء دون اعتراض من قبل النصارى 0 (30)

كان أغلب نصارى فلسطين من أصل عربي 0 أما النصارى الآخرين فكانوا من دول أوروبا الغربية مثل الطليان والألمان وقد تركز وجود هؤلاء في القدس وبيت لحم والناصرة 0 أما أهم الطوائف المسيحية التي سكنت فلسطين فهي اللاتين والسوريون (السريان) اليعاقبة والأرمن واليونانيون والأرثوذكس والنساطرة والهنود والأحباش والجورجيون 0 وقد كان عدد المنتمين للكنائس الأرمنية والقبطية والحبشية والجورجية صغيراً جداً ، وقد تركز أكثرهم في القدس وبيت لحم 0 (31)

ينتمي غالبية نصارى فلسطين الى المذهبين الارثوذكسي واليعقوبي 0 وقد تمحور الخلاف الديني بين الكنيستين حول الصراع العقائدي الذي دار بين فرق النصارى المختلفة والمتعلق بماهية السيد المسيح 0 ففي حين قال الارثوذكس باتحاد العنصر الالهي والعنصر الانساني بسيدنا المسيح، مثلهم في ذلك مثل الكاثوليك أو اللاتين ، قال اليعاقبة بالوهيته الكاملة ، مثلهم في ذلك مثل كنائس شرقية أخرى كالكنيسة القبطية والكنيسة الارمنية 0 لقد كان عدد النصارى الارثوذكس يفوق عدد النصارى اليعاقبة ، وكانت السيطرة على كنيسة القيامة وكنيسة المهد وكنيسة البشارة في كل من القدس وبيت لحم والناصرة بأيدي الارثوذكس 0)

(32)

توافد على فلسطين في الفترة المملوكية أعداد كبيرة من الحجاج والزوار المسيحيين 0 تشددت السلطات المملوكية في التعامل معهم خوفاً من اندساس الجواسيس بينهم 0 حيث اعتبرت السلطات المملوكية بعض هؤلاء الحجاج جواسيس وذلك جراء الأوصاف الدقيقة للبلاد الاسلامية التي أوردتها هؤلاء الحجاج بعد عودتهم 0 الى بلادهم خصوصاً التحصينات العسكرية والطرق والطاقات الاقتصادية والامكانات القتالية 0 فقضت الاوامر المملوكية بأن يقوم كل ربان سفينة بتسجيل أسماء الحجاج الذين معه، وأوصاف كل واحد منهم مبيناً طول قامته ولون بشرته والعلامات المميزة له 0 وكان يعهد الى موظف مسلم بمهمة القيام بعملية مطابقة محتوى هذه اللوائح والقوائم مع الحجاج 0 وفرضت السلطات المملوكية عدة رسوم على هؤلاء الحجاج أهمها " رسم الدخول " وكان يجبى في عكا أو يافا اذا قدموا الى البلاد عن

طريق البحر وفي غزة اذا قدموا عن طريق مصر ، لأن بعض الحجاج الاروبيين كانوا يقدمون الى مصر اولاً ثم يسافرون الى فلسطين 0 وكانوا يدفعون ضريبة أخرى هي ضريبة " موجب الخفر" وكانت تجبى من الحجاج عند وصولهم الى مدينة الرملة مقابل توفير حماية لهم من الرملة الى القدس 0 وكان هؤلاء الحجاج يتعرضون الى كثير من الابتزاز من قبل السلطات المملوكية ومن قبل رؤساء الرهبانيات وقناصل البندقية وجنوة ، لهذا كانت رحلة الحاج باهظة الثمن ، وكان يتوجب على الحاج فتح كيس نقوده والدفع الدائم طوال رحلته 0 في كثير من الحالات كانت ترفع الشكايات الى السلاطين حول أمر الحجاج وكثرة الضرائب التي تجبى منهم وحول السكان المسيحيين المحليين الذين كانوا يشعرون بثقل الضريبة المفروضة عليهم فكان السلاطين في بعض الاحيان يستجيبون لمطالبهم باصدار مراسيم بتخفيف الجبايات أو الاعفاء من بعضها 0 (33)

اليهود

ان المعلومات المتوفرة عن اليهود في فلسطين اكثر وضوحاً وشمولية من تلك المتوفرة عن المسلمين والنصارى ، ويعود ذلك لكثرة الدراسات التي اهتمت بتاريخهم ، رغم قلة عددهم وعدم اهمية دورهم في المجتمع 0 فقد كان عدد السكان اليهود في فلسطين بين مد وجزر عبر العصور ، منذ الفتح الاسلامي وحتى الوقت الحاضر 0 سأحاول بحث هذا الموضوع من خلال وقائع معينة ومن خلال عدد من الملاحظات والاحصائيات والاحداث التي قمت بجمعها 0

لقد كان عدد اليهود في فلسطين يتناقص او يزيد وذلك لعدة اسباب أهمها:-

وجود هجرة يهودية الى خارج فلسطين لأسباب سياسية ودينية حيث الاختلاف بين الطوائف اليهودية 0 الهجرات القسرية الى خارج فلسطين التي فرضت على اليهود من قبل الفرنجة 0 وجود هجرة يهودية الى خارج فلسطين لأسباب اقتصادية مثل المجاعات وانتشار الجراد والقحط 0 وتناقص أعدادهم بفعل الأوبئة والطواعين التي انتشرت في فلسطين وأهلكت قسماً منهم 0 وعلاقة اليهود بالمسلمين والنصارى التي كانت تتميز بالتوتر بين الحين والآخر والتي أجبرت أعداداً منهم على الهجرة 0 وأعمال القتل والعنف ضدهم خاصة خلال فترة الفتن والحروب 0 (34)

ووجود هجرة يهودية معاكسة ، أي الى فلسطين 0 وقد تمت هذه الهجرة لأسباب دينية وأخرى اقتصادية 0 وكان غالبية المهاجرين الذين دخلوا فلسطين في العهد المملوكي من أصل أوروبي، خصوصاً من الأندلس 0 (35)

تأثر وتباين عدد السكان اليهود في فلسطين في الفترة الممتدة بين القرن الرابع والقرن الثامن للهجرة بالصدام بين النصرانية والاسلام، هذا الصراع الذي بدأ بالحملات الصليبية ليستمر طوال الفترة الأيوبية والمملوكية، والذي ركز أنظار العالم على الأحداث في فلسطين ، ونبه الكثير من يهود العالم للهجرة اليها 0 فاليهودية تعتبر فلسطين مكاناً خاصاً من ناحية دينية 0 ففي عام (608/609هـ) (1209/1210م) قدم رجال دين يهود من فرنسا وانجلترا الى القدس، وفي عام (655هـ/1257م) قدم رئيس المدرسة الدينية اليهودية في

باريس الحبر يحتل الى القدس لتقديم القرابين فيها، وفي عام (665هـ / 1267م) ترك الحبر موسى بن نحمان بلاده اسبانيا واستوطن في القدس، وفي عام (687هـ / 1288م) حاول الحبر مئير بن روتنبرغ الحاخام الأكبر ليهود المانيا أن يأتي الى الديار المقدسة الا أنه اعتقل في لومبارديا 0 ان حركة الحج والهجرة اليهودية الى البلاد والى القدس خاصة تعتبر ردة فعل على ما حصل لهم على يد الفرنجة حيث لاحقوهم وقتلوا وهجروا قسماً كبيراً منهم حينما احتلوا القدس وبعض مدن فلسطين 0 (36) وقد كان يرافق رجال الدين اليهود بعض الجماعات اليهودية المؤيدة لهم 0 وحاولت هذه الجماعات أن تؤسس لها قاعدة عريضة في فلسطين 0 لقد طمح اليهود الى السكن في فلسطين حيث ربطوا ذلك بالدين اليهودي وبالتوراة واعتبروا فلسطين الأرض التي وعدهم الله بها 0 وقد اعتبروا الصراع القائم بين النصرانية والاسلام قد دمر الديار المقدسة وخربها، وأن اليهود اذا ما بذلوا مجهوداً فسيجعلونها تزدهر ، وسيقومون ببنائها 0 (37) وقد ظلت هذه النظرة قائمة الى العصر الحديث حتى تمكنوا من الاستيلاء عليها وتحقيق حلمهم 0

وبالرغم من هذا الاهتمام للسكن في فلسطين الا أن هناك الكثير من الحالات التي تبين قلة عددهم سواء في الفترة الصليبية أو الفترتين الأيوبيه والمملوكية والتي يمكن أن تعطينا صورة أكثر وضوحاً لما كانت عليه أعداد اليهود في فلسطين في العصر المملوكي الذي يعتبر امتداداً للعصر الذي سبقه، لأن السياسة التي اتبعت بخصوص الأقليات لم تختلف كثيراً 0 ففي القدس فرضت السلطات الاسلامية في القرن العاشر ميلادي ضريبة صغيرة على

اليهود بلغت (100) دينار سنوياً ، وبما أن ضريبة الجزية تبلغ دينار على الشخص العادي ودينارين على أبناء الطبقة الوسطى ، وأربعة دنانير على الأغنياء ، لذا فإن عدد اليهود في المدينة ربما لم يتجاوز آنذاك مائة عائلة على أساس أن من يدفع الضريبة هم الرجال ذوي الدخل وليس الأطفال والشيوخ والنساء ، وبما أن معدل أفراد العائلة كان حوالي خمسة أفراد فإننا نستطيع أن نقدر أن عددهم في المدينة لم يتجاوز (500) شخص أي حوالي 2% من مجموع سكان المدينة 0 حيث قدر عدد السكان في تلك الفترة بحوالي أربع وعشرين الى خمس وعشرون الف نسمة 0 وربما كان بين عدد هؤلاء اليهود كثير من الحجاج والزوار الذين قدموا الى المدينة بهدف الزيارة والحج وقد عدهم المؤرخون ضمن دافعي ضريبة الجزية اليهود في المدينة 0

في عشرينات القرن الحادي عشر الميلادي بدأت أعداد اليهود المقيمين بفلسطين بالتقلص والاضمحلال 0 اذ تعرض البلد خلال هذه الفترة لسلسلة من الغزوات الخارجية وعصفت به الاضطرابات الداخلية التي شكل بنو الجراح الطائيون والقرامطة قطبيها ، فاختار كثير من اليهود ان لم تكن غالبيتهم الساحقة ، ترك فلسطين الى مصر والعراق حتى أنه لم يعد في مقدرة من تبقى منهم صيانة الكنس الدينية والمجمع الديني 0 فكانوا يتوجهون الى أبناء دينهم في مصر كي يبعثوا لهم بالصدقات والأموال لدفع الضرائب المفروضة عليهم ولصيانة أماكنهم المقدسة (38)0 هذا في القدس التي كانت أقدس المقدسات اليهودية ، حيث

كان اليهود يحبذون الهجرة اليها والاقامة فيها، فكيف اذن سيكون حجم اليهود في باقي المدن الفلسطينية الأخرى ؟

والمقدسي من القرن العاشر ميلادي يقول عن مدينته انه يغلب عليها المسيحيون واليهود 0 وهذه العبارة أثارت انتباه بعض الكتاب والمؤرخين حيث يرى الدكتور محسن يوسف أن هذه العبارة قد لا تشير بالضرورة الى أكثرية عددية ، وقد تعني أن عددهم كان كبيراً في نظر المقدسي، ولربما تكون الغلبة في نظره غلبة اقتصادية أو ادارية، وليس غلبة عددية كما فهمها بعض المؤرخين ، وهذا يناقض ما يورده ابن حوقل الذي كان معاصراً للمقدسي بشأن مساحة المسجد الأقصى التي كانت تفوق مساحته الحالية بكثير، وهذا طبعاً يدل على كثرة عدد السكان المسلمين في المدينة وفي المنطقة القريبة منها 0 (39)

لجأ الصليبيون عند احتلال فلسطين والقدس على وجه الخصوص الى قتل السكان وتهجيرهم مما جعل مدينة القدس خالية الا من الجيش الصليبي، وهذا بطبيعة الحال ينطبق على بقية المدن الفلسطينية التي هجرها سكانها المسلمون واليهود خوفاً من الفرنجة ، اذن تعرض اليهود لتعسف الفرنجة وظلمهم ولاقى البعض منهم القتل كما حدث مع المسلمين 0 ولم يقتصر تعدي الفرنجة على السكان اليهود بل تعداه الى مقابرهم حيث نالها قسط من التدمير وتم استخدام بعض حاراتها في بناء بيوتهم 0 لقد أصبحت المدن الفلسطينية تحت الغزو الصليبي خالية من اليهود بسبب التتكيل بهم أو أسر بعضهم وبيعه بشكل عبيد في

أوروبا، أو أحرقتهم كما كان الحال ببعضهم في كنيسهم في القدس 0 ومنهم من غادر إلى

مدينة عسقلان التي خضعت لحكم المسلمين لفترة طويلة بعد احتلال القدس 0 (40)

في سنة (559هـ/1163م) زار الرحالة اليهودي بنيامين التوديلي فلسطين وتناول

فيها وزار معظم مدنها وبعض قراها بعد أربع وستين عاماً من الاحتلال الصليبي، وقد أورد

لنا بعض الإحصائيات عن اليهود في فلسطين فذكر أن عددهم كان: في عسقلان 540 شخص

، عكا 200 شخص، اللطرون 300 شخص، طبريا 50 شخص، بيت لحم 12 شخص،

علما 50 شخص، بيت جبرين ثلاثة أشخاص، قيسارية 210 شخص، والقدس 200 شخص

، وبيت نوبا شخصان، والرملة ثلاثة أشخاص، وزرعين شخص واحد، والجش 20 شخص،

ونابلس 100 شخص، واللد شخص واحد 0 (41) وبذلك يكون مجموع يهود فلسطين 1693

شخصاً 0 ويمكن أن يكون هؤلاء دافعي ضرائب وليس عددهم الإجمالي 0 ولمعرفة العدد

الإجمالي للسكان اليهود يمكن مضاعفة الرقم خمس مرات ليصبح العدد الإجمالي للسكان

اليهود في فلسطين حوالي 8465 شخص في تلك الفترة 0

لقد وجد الرحالة بنيامين التوديلي عدد اليهود أو عدد دافعي الضرائب اليهود في مدينة

دمشق لوحدها 3000 نسمة 0 وهذا العدد يعتبر كبيراً جداً بالنسبة ليهود فلسطين إذا ما أخذنا

بعين الاعتبار الدعاية اليهودية التي تروج لأهمية فلسطين الروحية والدينية لليهود 0 (42)

لكن ربما يعود سبب صغر حجم عدد السكان اليهود في فلسطين للأسباب الاقتصادية

والسياسية والعسكرية التي ذكرناها سابقاً 0 ويؤكد ذلك السائح اليهودي بتاحيابين الذي زار

القدس سنة (566هـ/1170م) وسجل من خلال مشاهداته أنه لم يكن في القدس سوى يهودي واحد هو الحاخام ابراهيم الصباغ 0 ويسمى بالصباغ لأنه كان يعمل في هذه المهنة 0 وفي جميع الأحوال يدل ذلك على قلة عدد السكان اليهود في المدينة 0 (43)

اتخذ صلاح الدين الأيوبي عدة اجراءات لتصحيح الوضع السكاني في فلسطين 0 وذلك بعد تحرير القدس والمدن الفلسطينية من قبضة الفرنجة 0 فدخلت الى فلسطين مع أعداد المسلمين جماعات من اليهود قدمت من البلاد العربية 0 ولجأ الى مدينة القدس بعض اليهود من شمال افريقيا وأوروبا خصوصاً من فرنسا 0 كما سكن اليهود في المدن الفلسطينية التي تم تحريرها من الفرنجة 0 وأخذوا بالعودة الى فلسطين وراجت تجارتهم وحرفهم التي كانوا يمارسونها من قبل 0 ومع هذا فلم يزد عددهم كثيراً ولم يتبلور لهم دور عمراني أو سياسي أو ثقافي كبير 0 فلا يمكن اليوم مشاهدة أي أثر عمراني يدل على وجودهم في تلك الحقبة 0 فلو كان عددهم كبيراً لكنا نلاحظ ذلك من خلال أثار عمرانية تشهد على وجودهم 0 وان ما نراه اليوم من مصادرتهم واستيلائهم على بعض الأماكن بحجة انها يهودية ومقدسة لهم ما هو الا باطل 0 أو يعود الى فترات زمنية غير الفترة الخاضعة للدراسة 0

زار الرحالة برتراندون دي لا بروكيير فلسطين في سنة (836 هـ / 1432م) وأورد عدداً من الاشارات عن يهود غزة حيث قال " وعندما وصلتها أي غزة 000 ولم ألق فيها من استطعت التفاهم معه سوى يهودي صقلي أتاني بسامري أنقذني من الحمى الشديدة " الأمر الذي يشير الى وجود يهودي في هذه المدينة في تلك الفترة ولكن ذلك الوجود كان بكل

تأكيد محدوداً جداً 0 (44) 0 وهذا ما أكدته الإحصائيات العثمانية لسنة (932هـ/1525م) التي أوردت وجود 120 رب عائلة (خانة) ثم تناقص العدد الى 113 رب عائلة سنة (940هـ/1533م) 0 وبالتالي يكون العدد الاجمالي للسكان اليهود في غزة حوالي 600 شخص على أساس أن الرقم 120 هم دافعي ضرائب 0(45)

في سنة (889هـ/1484م) زار السائح المشهور فيليكس فابري فلسطين وأتى الى القدس وقدر عدد اليهود في المدينة حوالي 500 يهودي ، كما تحدث عن قحط ومجاعة وأمراض كانت تجتاح المدينة يوم دخلها 0 وحمد الله على أنه نجا من هذه الأمراض التي كان يصاب بها أكثر الأغراب الذين كانوا يفدون على المدينة 0 وهذا بكل تأكيد قتل من أعداد السكان اليهود في المدينة 0 وبالنسبة للرقم الذي ذكره عن وجود 500 يهودي فربما أن فيليكس قد اعتمد على الوثائق التي تبين عدد دافعي الضرائب في القدس في تلك الفترة 0 وحتى نصل للرقم الحقيقي علينا أن نضاعف الرقم خمس مرات فيصبح العدد حوالي 2500 شخص يهودي 0 وهذا قد لا يكون عدداً دقيقاً لأنه كان يسود المدينة القحط والمجاعة والأمراض، ونحن نجهل الطريقة التي قدر فيليكس على أساسها عددهم ، وربما يكون العدد الذي تحدث عنه هو العدد الذي نجا من الأمراض(46) ولكن الإحصائيات العثمانية تعطينا صورة أكثر دقة من الرقم الذي ذكره فيليكس حيث تورد احصائيات سنة (932هـ/1525م) بعد اربعين سنة من زيارة فيليكس وجود 199 رب عائلة للسكان اليهود في القدس أي حوالي 1000 يهودي ثم ارتفع العدد الى 224 رب عائلة سنة (940هـ/1533م) أي حوالي 1120

يهودي 0 (47) ويؤكد ذلك الحاخام مشلم بن مناحم الذي زار القدس سنة (886هـ/1481م) أي قبل زيارة فيلكس بثلاث سنوات والذي قدر عدد بيوت اليهود في المدينة 250 بيتاً مقابل 10000 بيت للمسلمين 0 بمعنى أن كل بيت يحتوي على عائلة 0 فيكون العدد تقريباً 1000 يهودي في القدس أو ربما أقل بشيء بسيط 0(48)

دلت مجموعة من الحوادث على وجود علاقات طبيعية بين اليهود والنصارى والمسلمين 0 ففي سنة (722هـ/1713م) انحبس سقوط الأمطار في فلسطين وعم الجفاف فقام وجهاء ورؤساء الطوائف من اليهود والنصارى والمسلمين بتنظيم صلاة استسقاء مشتركة في القدس 0 وهناك عدد من الحجاج الذين وصفوا العلاقة بين المسلمين واليهود بأنها حسنة وان العرب لا يقومون بأعمال سلب أو اعتداء ضد اليهود 0 ويرى يوسف دروري في هذه العبارة دلالة على نسبة اليهود الصغيرة في المدينة وأنهم كانوا مغلوبين على أمرهم ولا توجد لديهم أية طموحات سياسية وأنهم لم يشكلوا أي تهديد على المسلمين وأن المدينة اتخذت طابعاً إسلامياً 0 وعاش اليهود فيها بسلام 0 (49) كما تبين بعض وثائق الحرم الشريف مدى التسامح والتعايش الذي ساد بين المسلمين واليهود في القدس 0 فالوثيقة رقم 334 تذكر أن عطاراً مسلماً كان قد اقترض بعض اليهود مالا كثيراً 0 والوثيقة رقم 327 تذكر أن يهودياً اشترى من مسلم بستان في ضواحي القدس 0 والوثيقة رقم 337 تشير إلى مسجد يقع في حارة اليهود 0 (50) إلا أن ذلك لا ينفي وجود حوادث وصدامات بين المسلمين واليهود ففي سنة (878هـ/1473م) في عهد السلطان قايتباي اختلف المسلمون واليهود على دار واقعة

بين كنيس اليهود ومسجد المسلمين في حارة اليهود حيث ادعى المسلمون أن هذه الدار من حقوق المسجد 0 وعارضهم اليهود في هذا الادعاء وتشاكى الفريقان امام القضاة 0 وعقد على أثر ذلك بالمدرسة التتكرية مجلس ترأسه ناظر الحرمين الأمير ناصر الدين بن النشاشيبي 0 وحضره القاضي شهاب الدين بن عتبة الشافعي والقاضي خير الدين بن عمران الحنفي وشيخ الاسلام نجم الدين بن جماعة شيخ الصلاحية وجمع من الفقهاء 0 وأصدر هؤلاء حكمهم في صالح اليهود 0 وحكموا ان الدار من جملة اوقافهم 0 فلم يرض المسلمون بهذا الحكم، فرفعوا امرهم الى السلطان بمصر فنقض السلطان حكم القضاة 0 وأصدر امراً جاء فيه " ان كنيس اليهود محدث، وان الدار المختلف عليها حق من حقوق المسجد 0 وانه لا حق لليهود فيها" فرفض اليهود في هذه المرة الحكم وأبى كبيرهم يعقوب أن ينصاع اليه 0 فثار المسلمون وكادوا أن يبطشوا باليهود 0 الا أن القاضي نهاهم قائلاً " هؤلاء من أهل الذمة 0 ذمة الله ورسوله وذمة أمير المؤمنين 0" فرفع اليهود امرهم الى السلطان فنظر في شكواهم هذه المرة قاضي القضاة بالديار المصرية وجمع من النواب والفقهاء 0 وصدر على اثر ذلك مرسوم من السلطان معنون الى ناظر الحرمين ناصر الدين يقضي بتمكين اليهود من كنيسهم وعدم معارضتهم في دارهم 0 وقد ذاعت في القدس يومئذ شائعات تقول ان اليهود ماكانوا ليحصلوا على ذلك المرسوم، لولا ما بذلوه من أموال وفيرة للسلطان والخزينة، واشتد الجدل بعد ذلك وكادت ان تقوم فتنة كبيرة في المدينة ، وقام المسلمون بهدمه مرة أخرى مما اثار غضب

السلطان قايتباي حيث اعتبر ذلك خروجاً على ارادته، والقى القبض على من اثار هذه الفتنة وعاقبهم، واعاد لليهود حق تملكه من جديد(51)

انقسم اليهود في فلسطين الى ثلاث فرق رئيسة وهم الربانيون والقراؤون والسامريون امّا الربانيون فيمثلون التيار القديم والاساسي ، ويعتمدون في شريعتهم على التوراة وعلى تعاليم مجتهديههم وشيوخهم، في حين تعتمد طائفة القرائين التي ظهرت للوجود وانفصلت عن الربانيين في القرن الثامن الميلادي، على التوراة فقط ، ولم تأخذ باجتهاد المجتهدين والعلماء اليهود الذي جمع في كتب "التلمود" و"المشناة"0 امّا السامريون فانهم يعتبرون انفسهم اليهود الاصليين ، وان التوراة التي يتداولونها هي التوراة الصحيحة ،بينما التوراة التي يتداولها الربانيون والقراؤون محرفة وغير صحيحة، في حين يعتبرهم الربانيون والقراؤون كفاراً وخارجين عن الملة اليهودية ، ولا شك ان هذه الاعتقادات قد جلبت انشقاقاً كبيراً بينهم حتى ان السامريين كانوا يفضلون المسلمين من ناحية اجتماعية على باقي اليهود (52)0 وقد كان الخلاف المذهبي بين هذه الطوائف اليهودية كبيراً بسبب سكنهم الى جانب بعضهم في المدن الفلسطينية ، وغالباً ما كانوا يشكون على بعضهم البعض للسلطات الاسلامية ويطالبونها بالتدخل بشؤونهم وانصافهم 0 لقد كان عدد القرائين يفوق عدد الربانيين في القدس ، وقد لجأ الربانيون في القرن الحادي عشر الى نقل مركزهم من الرملة الى القدس من أجل تعزيز وضعهم في المدينة ، وقد وفد اليهود القرائين الى فلسطين من العراق وايران وسكنوا في القدس الى الشرق من باب العمود ، واطلق على حيهم اسم حي المشارقة ، أي

الذين وفدوا من المشرق، وأحياناً أطلق عليهم اسم البابليين، بينما سكن الربانيون القدس والرملة ومناطق في الجليل وبعض القرى مثل قرى الجش وعلما، وهؤلاء وفدوا إلى فلسطين من مصر والمغرب وأوروبا⁰ وقد انتقل اليهود الربانيون من الرملة إلى القدس، وبسبب سوء الأوضاع الأمنية نقلوا مركزهم إلى حيفا ثم إلى عكا التي احتلت من قبل الصليبيين فنقلوا مركزهم إلى مدينة صور اللبنانية، وبعدها إلى دمشق⁰⁽⁵³⁾ وقد استمر هذا الحال بالطوائف اليهودية خلال الفترة المملوكية على ما هو عليه، وإن شهد بعض التحسن في أوضاعهم⁰

عاش السامريين في نابلس وعسقلان والرملة وغزة والقدس، وما زالت تعيش هذه الطائفة إلى يومنا هذا في نابلس⁰ وقد بلغت حد من الشهرة بحيث نسبت المدينة إليهم، فيقال لنابلس مدينة السامرة، أما الأراء حول السمرة وأصولهم ومعتقداتهم، فيرى البعض أنهم من اليهود الأصليين، وينتسبون في أصل أرومتهم إلى يوسف الصديق، إلا كاهنهم فينتسب إلى لاوي، ويرى البعض أن السامريين ليسوا من اليهود ولا من أصل يهودي وإنما من أصل عراقي وسموا بذلك نسبة إلى أرض السامرة بعد أن نقلهم الآشوريون إليها في الألف الأول قبل الميلاد إلى فلسطين⁰ ويقدر الرحالة اليهودي بنيامين التوديلي الذي زار فلسطين في القرن الثاني عشر الميلادي أعداد اليهود السامريين بنحو ألف شخص، وتتميز هذه الطائفة بالتمسك الشديد بمعتقداتها، واقتباسها الكثير من العادات والتقاليد واللهجات من المسلمين واعتناق بعضهم للإسلام، وكان رئيس الطائفة يقيم في نابلس وله نائب يقيم في دمشق⁰⁽⁵⁴⁾

0 وقد طبق سلاطين المماليك عليهم الاجراءات المطبقة على النصارى وبقية طوائف اليهود الأخرى، فألزموهم بارتداء العمائم الحمراء ودفع ضريبة الجزية (55)0 وكانوا يستخدمون لغتهم العبرية القديمة فيما بينهم، ويؤدون بها طقوسهم الدينية (56)

اتضح أن اليهود سكنوا غالبية المدن الرئيسية ، وأحياناً سكنوا بعض القرى 0 والمدن التي سكنوها هي الرملة والقدس وطبريا ويافا وعكا وعسقلان وبيننا وقيسارية ونابلس وحيفا والد وصفد، وسكنوا قرى الجليل مثل الجش وعلما وكفر برعم وميرون وعمقة والعلوية ودير حنا 0 وقد ذكرت أعداد من اليهود في الجش وعلما ، بينما القرى الأخرى لم تذكر فيها أية احصائيات ، ومن غير المؤكد ان يكونوا من سكان تلك القرى وانهم ربما كانوا زواراً أو حجاجاً0(57)

عاش اليهود في أحياء خاصة بهم الا أن هذه الأحياء كانت متاخمة للأحياء الاسلامية ، وقد ظهر ذلك بجلاء في مدينة القدس 0 وفي أحيان أخرى كانوا يعيشون بشكل مبعثر بين السكان ، وغالباً ما كانت تنشأ خلافت حول المسجد والكنيس المتجاورين ، أو حول ارتفاع المنازل 0(58) وقد شكلت الجماعات اليهودية التي تعيش في أحياء خاصة بها جماعات صغيرة ، وكانت بانعزالها شبه الطبيعي والروابط العائلية الوثيقة والتجانس العرقي او الديني والتضامن بين افراد الجماعة الواحدة والوحدة الاقتصادية تشبه الى حد ما الجماعات القروية 0(59) على أنه كان بإمكانهم تغيير مكان سكنهم والانتقال الى الأحياء المسلمة او المسيحية ان ارادوا، وكان بإمكانهم مزاوله أي عمل او مهنة يختارونها ، ولكنهم

فضلوا التجارة والدباغة وصناعة الزجاج والعقاقير والحدادة والمجوهرات ، كما اهتموا

بالوظائف الحكومية وخدمة السلطان 0(60)

وحسب الاحصائيات العثمانية فان عدد سكان فلسطين في مطلع القرن السادس عشر

قد وصل الى حوالي 340200 نسمة من المسلمين والمسيحيين واليهود 0 وقد سكن هؤلاء

بالمدين والارياف الى جانب بعض القبائل البدوية المرتحلة دوماً 0 وقد دلت الاحصائيات على

كثافة سكانية في جبال القدس ونابلس وكثافة أصغر في الجليل ومنطقة غزة، وان هذه

التقديرات والفروقات كانت واضحة على مر الأزمان 0 حيث كان اليهود لا يشكلون أكثر من

2% من مجموع السكان سواء في الفترة التي سبقت الفترة الصليبية وفي الفترتين الأيوبية

والمملوكية 0 وان هذه النسبة لم تزد كثيراً في الفترة العثمانية رغم بعض التحسن في

الظروف الاقتصادية والاجتماعية وزيادة الهجرة الى فلسطين 0 وكان من ضمن ما لاحظته

الباحثان كمال عبد الفتاح وهوتيروت ان مدينة صفد قد سجلت نسبة عالية من اليهود 0 بسبب

الهجرة اليهودية اليها في أعقاب ملاحقة الاسبان لغير المسيحيين في اسبانيا اضافة الى تحسن

الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية والأمنية التي طرأت على المنطقة في بداية الحكم العثماني

0(61)

خاتمة

طراً بعض التغيير على وضع فلسطين الديموغرافي، منذ الاحتلال الفرنسي وحتى الحكم العثماني، وذلك بفعل الظروف السياسية والدينية والاقتصادية وبفعل المجاعات والأمراض التي انتشرت في فلسطين في تلك الفترة 0 حاولت في هذا الفصل تبيان فئات السكان الدينية التي عاشت في فلسطين في العصر المملوكي مستعيناً ببعض الوقائع والأحداث من الفترة السابقة للمماليك والاحصائيات التي توفرت في بداية الحكم العثماني وذلك للغموض الذي يكتنف المصادر المملوكية، ولعل هذا الغموض يعود الى اهمال المصادر المملوكية لكل من النصارى واليهود، حيث ان هاتين الفئتين على الاغلب لم يكن لهما أي دور مهم في فلسطين بجانب الأكثرية المسلمة للسكان، ان المعطيات والمصادر التي اعتمدتها في هذه الدراسة تبين بان المسلمين كانوا يشكلون الغالبية العظمى للسكان 0 من الصعب تحديد نسبة كل مجموعة دينية لمجموع السكان بصورة دقيقة لأن المعلومات التي توفرت عن الموضوع غير كافية الا ان الاحصائيات التي توفرت في بداية الحكم العثماني، أي بعد انتهاء الحكم المملوكي بفترة بسيطة أعطتنا صورة أوضح عن نسبة السكان في فلسطين في الفترة المملوكية، فتراوحت نسبة السكان المسلمين ما بين 70-80 % من السكان في حين كانت نسبة السكان النصارى ما بين 20-30 %، اما نسبة اليهود فلم تتجاوز ال 2% في

جميع الاحوال 0

ولكن إياً كانت اعداد السكان في هذه الفترة يبدو أن الفئات الثلاث عاشت جنباً الى جنب وأقامت علاقات طبيعية فيما بينها رغم وجود بعض الحوادث التي كانت تعكر صفو هذه العلاقات 0

الهوامش

1. محسن يوسف " الخارطة الدينية لسكان فلسطين عشية الاحتلال الصليبي " مجلة آفاق، العدد 7 ، (1993 : ص 3- 37) 0
2. يوسف غوانمة 0 تاريخ نيابة بيت المقدس في العصر المملوكي 0 (عمّان : دار الحياة، 1992) ص 122 0
3. ايرا لابييدوس 0 مدن الشام في العصر المملوكي 0 (دمشق : دار حسان ، 1985) 0 ص 148 0

4. نظمي الجعبة 0 " كامل العسلي وقضية القدس " ابحاث الندوة المنعقدة في القدس من (15-14 اذار 1996، منشورات الجمعية الفلسطينية للشؤون الدولي 0
5. يوسف دروري 0 القدس في عصر المماليك ، دراسات في تاريخ المدينة 0 تحرير امنون كوهين 0(القدس : ياديتسحاق بن تسفي ، 1990) ص 115 0
6. الموسوعة الفلسطينية، الدراسات التاريخية 0 المجلد الثاني 0 (بيروت: 1990) 0 ص 588
7. الموسوعة الفلسطينية ، ص 587- 593 0
8. الموسوعة الفلسطينية ، الجزء الثالث، ص 310- 315 0
9. عارف العارف 0 المفصل في تاريخ القدس 0 (القدس: مطبعة المعارف، الجزء الاول، ط 4، 1961) ص 215- 217 0
10. محمود علي خليل عطا الله 0 نيابة غزة في العهد المملوكي 0(بيروت: دار الآفاق الجديدة، 1986) ص 79- 93 0
11. رئيسة عبد الفتاح العزة 0 نابلس في العهد المملوكي 0 (نابلس: دار الفاروق للثقافة والنشر، 1999) ص 90- 96 0
12. هادية الدجاني 0 الصراع الاسلامي الفرنجي على فلسطين في القرون الوسطى 0 (بيروت: مؤسسة الدراسات الفلسطينية ، 1994) ص 463- 466 0

13. كمال عبد الفتاح، هوتيروث ولف ديتر 0 سكان فلسطين والأردن وجنوب سوريا في أواخر القرن السادس عشر 0 (1977) ص 36-63 0 باللغة الانجليزية 0
14. محسن يوسف 0 مصدر سبق ذكره ، ص 31 0
15. هادية الدجاني 0 مصدر سبق ذكره ، ص 428-430 0
16. هادية الدجاني 0 ص 429 0
17. محمود خليل عطا الله 0 مصدر سبق ذكره، ص 91-92 0
18. رئيسة عبد الفتاح 0 مصدر سبق ذكره، ص 90-93 0
19. كمال عبد الفتاح 0 مصدر سبق ذكره، ص 52 0
20. كمال عبد الفتاح 0 ص 56 0
21. هادية الدجاني 0 مصدر سبق ذكره، ص 442-445 0
22. مجير الدين أبو اليمن 0 الانس الجليل بتاريخ القدس والخليل، تحقيق محمد بحر العلوم، (النجف: 1968)، الجزء الثاني 0 ص 349-353 0
23. يوسف غوانمة 0 مصدر سبق ذكره، ص 121-122 0
24. محسن يوسف 0 مصدر سبق ذكره، ص 32 0
25. محمد بن احمد المقدسي 0 أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، ميخائيل جان دوغويه، ط 2، (لیدن:بريل، 1967) ص 183 0

26. أحمد بن أبي أصيبعة 0 عيون الأنباء في طبقات الأطباء، تحقيق نزار رضا
0 (بيروت: دار مكتبة الحياة، 1981) ص 587-600 0
27. يوسف دروري 0 مصدر سبق ذكره، ص 116-117 0
28. يوسف دروري 0 ص 117 0
29. رئيسة عبد الفتاح 0 مصدر سبق ذكره، ص 90-93 0
30. هادية الدجاني 0 مصدر سبق ذكره، ص 463-466 0
31. هادية الدجاني 0 ص 429-430 0
32. محسن يوسف 0 مصدر سبق ذكره، ص 31-32 0
33. تقي الدين أحمد بن علي المقرئ 0 السلوك لمعرفة دول الملوك 0 (القاهرة: لجنة
التأليف والترجمة، الجزء الرابع، 1973) 0 ص 1070 0
34. محسن يوسف 0 مصدر سبق ذكره، ص 25 0
35. الموسوعة الفلسطينية 0 الدراسات التاريخية، المجلد الثاني، (بيروت: 1990) 0 ص
593
36. يوسف دروري 0 مصدر سبق ذكره، ص 68-69 0
37. يوسف دروري، ص 69 0
38. خليل عثمان 0 فلسطين في خمسة قرون 0 (بيروت: مؤسسة الدراسات الفلسطينية،
2000م) 0 ص 167-168 0

39. كامل العسلي 0 مصدر سبق ذكره ، ص 19-21 0
40. كامل العسلي 0 ص 41 0
41. Benjamin of Tudela , The Travels of Rabbi Benjamin of Tudela, A, D ,1160 –1173 .Early
 .Trvels in Palestine ,ed . by Thomas Wright (New york: Ktav publishing House, 1968),p89
42. خليل عثمانة 0 مصدر سبق ذكره، ص 168 0
43. مصطفى مراد الدباغ 0 بلادنا فلسطين 0 (كفر قرع : دار الهدى ، القسم الثاني،
 2002 م) 0 ص 229 0
44. محمود خليل عطا الله 0 مصدر سبق ذكره، ص 91-93 0
45. كمال عبد الفتاح 0 مصدر سبق ذكره، ص 42 0
46. نقولا زيادة 0 رواد الشرق العربي 0 (عمّان: الشرق للدعاية والنشر، 1980) 0 ص
 198 0
47. كمال عبد الفتاح 0 مصدر سبق ذكره، ص 42 0
48. هادية الدجاني 0 مصدر سبق ذكره، ص 463-466 0
49. يوسف دروري 0 مصدر سبق ذكره ، ص 117 0
50. هادية الدجاني 0 مصدر سبق ذكره، ص 465-466 0
51. يوسف دروري 0 مصدر سبق ذكره، ص 117-118 0
52. محسن يوسف 0 مصدر سبق ذكره ، ص 26 0

53. محسن يوسف، ص 27 0
54. عماد الدين اسماعيل بن الأفضل أبو الفداء 0 المختصر في أخبار البشر 0 ج 3 ،
(بيروت: دار المعرفة للطباعة والنشر، 1961) 0 ص 174 0
55. رئيسة عبد الفتاح 0 مصدر سبق ذكره، ص 93- 95 0
56. عبد الله عارف 0 مدينة نابلس 0 (دمشق: 1964) 0 ص 105 0
57. محسن يوسف 0 مصدر سبق ذكره، ص 26 0
58. ايرا لابيديوس 0 مصدر سبق ذكره، ص 145- 150 0
59. لابيديوس 0 ص 149 0
60. محسن يوسف 0 مصدر سبق ذكره، ص 30 0
61. كمال عبد الفتاح 0 مصدر سبق ذكره، ص 45- 55 0

الفصل الثالث : الفئات العرقية

المقدمة

سكن فلسطين خلال الفترة الصليبية والمملوكية أخلط من العرب والفرنجية والتركمان والأكراد والأتراك ، وقد لعبت هذه المجموعات دوراً كبيراً في الحياة الاجتماعية في هذه الفترة 0 وكان لها تأثيرات كبيرة انعكست على الجوانب السياسية والعسكرية والاقتصادية ، فقد تأثرت الجالية الصليبية بساكني البلاد الأصليين وأثرت أيضاً على هؤلاء السكان 0 كما كان للقبائل العربية دوراً كبيراً اذ ساهمت أحياناً بدعم السلطة المملوكية، وأثارت الفتن والقلاقل أحياناً أخرى ، وتواجد عنصر الأتراك والجراكسة في فلسطين وحازوا على امتيازات عدة 0 علاوةً على ذلك كانت هناك فئة العبيد التي تواجدت في فلسطين حيث لعبت دوراً كبيراً في المجتمع الفلسطيني، وأثرت على السلطة المملوكية الحاكمة واستقرارها 0 سأقوم ببحث أدوار هذه الفئات جميعاً ومدى مساهمتها في الابقاء على الدولة المملوكية ومؤسساتها

الصلبيون

دمت جماعات من الفرنجة من فرنسا وإيطاليا وإسبانيا وصقلية خلال فترة الصراع الإسلامي الفرنجي 0 واستقرت هذه الجماعات في معظم مدن فلسطين خصوصاً في المدن الساحلية 0(1)

أسس الفرنجة مستعمراتهم على أراضي بعض القرى إضافة إلى المدن التي سكنوها إلى جانب السكان الأصليين 0 فأقاموا مستعمرة على أراضي قرية البيرة شمال بيسان وأسموها (Leberium) وأخرى على أراضي قرية بيلو والمعروفة باسم (Habeleth) والواقعة شمال غرب بيسان 0 كما اتخذوا بعض الخرب للاستيطان وأطلقوا عليها اسم "جاستينا" وهذا اللفظ مشتق من المصطلح (vastus) وكان يطلق عادة على الأراضي البور أو المشاع المستخدمة للرعي 0(2)

يشير المؤرخ الصليبي (فوشيه الشارترى) إلى بعض سكان أوروبا الذين استقروا في فلسطين "نحن الذين كنا غربيين أصبحنا الآن شرقيين 0 والذي كان رومانياً أو فرنسياً أصبح جليلاً أو فلسطينياً، والذي كان من ريمرز أو شارتر أصبح الآن مواطناً في صور وعكا أو انطاكية أو بيسان ونسبنا الآن أماكن ولادتنا، وأصبحت تلك الأماكن غريبة للعديد منا، أو حتى لا نذكر منها شيئاً" (3) ويتضح من كلام الشارترى أن الأوروبيين طابت لهم الإقامة والاستقرار في الأراضي المقدسة لأن عبارته "نسبنا أماكن ولادتنا" تحمل في طياتها الكثير من المعاني والتفسيرات، وهذا يبين أيضاً أن الذين استقروا في مناطق فلسطين كانوا من

مناطق مختلفة من فرنسا وإيطاليا وإسبانيا، وهذا يعني انهم من أمم مختلفة جمعتهم المصالح الاقتصادية والطمع في ثروات الشرق، وظل الامر كذلك حتى تم تحرير مدن فلسطين من الصليبيين، ففي نابلس على سبيل المثال سمح حسام الدين لاجين ابن اخت صلاح الدين الذي حرر المدينة من الصليبيين بمغادرتهم المدينة الى أية جهة يختارونها ، فغادر منهم من غادر ، وبقي منهم من بقي 0 ونفس الشيء انطبق على بقية المدن الفلسطينية الأخرى ، واغلب من بقي من هؤلاء كانوا من الطبقة التي نشأت جراء زواج الآباء الصليبيين مع الشرقيات من النصارى المحليين 0(4) وهذه الظاهرة غالباً ما أطلق عليها ظاهرة الافراخ أو البولان أو البولاني (Pulani)، هذا الاسم أطلق على الذين ولدوا في الاراضي الفلسطينية ، لأن القسم الأكبر من امهاتهم كن من الشعب الابولي ، وكلمة بولاني مشتقة من العريية ابن فلان ، وأحياناً سموا بالمشركيين ، وهم نتاج الزواج المشترك بين الفرنجة والمسيحيين الشرقيين من سريان وأرمن أو حتى من المسلمين 0 وقد وصفوا بالنعومة والتخنث والهروب من الواقع 0وغلبت على هذا الجيل طبائع وعادات الشرق، ومنها الشك والغيرة على الزوجات مما جعلهم يحبسون زوجاتهم في أماكن كالسجن ، ويضعونهن تحت حماية صارمة ودقيقة، حتى من اقرب الناس اليهن من الاخوة والأقارب ، ونادراً ما كان هؤلاء يأتون اليهن لزيارتهم 0 كذلك قاموا بمنعهن من زيارة الكنائس مطلقاً والحضور لسماع المواعظ 0والمؤرخ الفتييري يرى ان هؤلاء كانوا عبئاً على المملكة،وسبب خرابها،اذ اتهمهم بالفساد حيث عاشوا في رفاهية مطلقة،وأدمنوا على الحياة الصاخبة غير النظيفة 0 (5)

استقر الفرنجة في بيسان وبيت المقدس والناصره وما حولها ، وأخذوا بالتوافد الى هذه المدن بأعداد كبيرة ، حيث يذكر لنا السمعاني سنة (562هـ/1167م) بأنه قابل منهم جماعات كثيرة ، وكان هؤلاء ينتمون الى شعوب عديدة منهم الألمان والأسبان والبرتغاليون والفرنسيون والايطاليون ، وكانت أعدادهم في بداية الغزو قليلة ، ثم اخذوا بالتوافد والازدياد والانتشار فيما بعد 0 وقد تركز وجودهم في المدن والقلاع والمستعمرات التي تم انشاؤها 0 (6) وامتازت حياتهم فيها بنشاط اقتصادي جيد 0 فتمكنوا من امتلاك كثير من المدن في الساحل، والأراضي الخصبة التي سلبوها من أصحابها صدر الفرنج من فلسطين الى الغرب الأروبي الزيت والزيتون والحمضيات والسكر حيث ازدهرت زراعته في غور الأردن والساحل ، بالاضافة الى الاقمشة والملابس الحريرية والزجاج والبسط ، والمنتجات الشرقية القادمة من الهند والصين 0 وجنى الفرنج من تلك التجارة الأرباح الطائلة 0 فقد منحت مملكة بيت المقدس الامتيازات التجارية للمدن الايطالية التجارية ، وأهمها جنوة والبندقية وبيزا وفلورنسا، فامتلك هؤلاء أحياء خاصة بهم في عكا وصور وبيروت ونابلس ويافا والقدس 0 وأقاموا الفنادق والبنوك الخاصة لتسهيل مهماتهم التجارية، فكان في بيت المقدس فرع لاحدى الشركات التجارية الفلورنسية الكبيرة ، بالاضافة الى ان مملكة بيت المقدس كانت تفرض الضرائب على القوافل التجارية المارة عبر بارونية الكرك 0 لم يكن هناك انسجام بين طبقات الفرنج المختلفة في فلسطين مما ادى الى انعدام التآلف بينهم ، وكان هذا عاملاً مهماً في اخفاقهم 0 فكان هناك الطبقة الارستقراطية الحاكمة من النبلاء

والفرسان حيث وصل عددهم الى ألف فارس في مملكة بيت المقدس 0 وطبقة المحاربين الفرنج وهؤلاء لم يكونوا من نبلاء الغرب بل من المحاربين المشاة الذين استقروا في فلسطين وتزوجوا من المسيحيات الوطنيات الشرقيات 0 فنتج عن هذا الزواج طبقة جديدة عرفت بظاهرة الأفراخ أو البولاني كما ذكرنا سابقاً ، وحلت هذه الطبقة مع الزمن مكان الطبقة الأولى ، وقامت بدورها في خدمة الوجود الصليبي في فلسطين 0 لكن البعض نظر اليها كعبء على المملكة الصليبية في فلسطين (7) 0 كما كانت هناك طبقة أخرى وهي مجموعة المسيحيين الشرقيين من أرمن وموارنه وسريان ويعاقبة وقبط 0 وكان هؤلاء الشرقيون محتقرين في المجتمع الفرنجي وكان يقع على عاتقهم مهمة القيام بالمهن الحقيرة التي كان الغربيون يأنفون مزاولتها 0 فالشرقيون لم يكونوا طبقة حاكمة لا في مملكة بيت المقدس ولا في الامارات الصليبية الاخرى في الشام ، وان حاول زعماء المملكة الصليبية الاكثار من هؤلاء، وتشجيع هجرتهم الى فلسطين لحاجة المملكة الى تعداد بشري صليبي 0 وهذا ما فعله الملك بلدوين الأول في حملته على شرق الاردن من أجل جلب أعداد من النصارى من تلك المنطقة 0 وقد تعرضنا لهذا الأمر في الفصل الثاني 0 (8)

استوطن الصليبيون في فلسطين فترة من الزمن 0 وعاشوا خلالها في مجتمع غريب عنهم وحكموا البلاد بالعنف والقسوة ، واستولوا على الأراضي الخاصة بالفلاحين المسلمين، والتي كانت تمنح على سبيل الهبات والامتيازات للكنائس والنبلاء ، وقد قامت بينهم وبين السكان علاقات مختلفة ، لا سيما في النواحي الاجتماعية ، ويبدو ان الصليبيين قد تأثروا

بعادات الفلسطينيين 0 فقد عاش الصليبيون في الشرق حياة اقرب الى الرفاهية على الرغم من استمرار الحروب بينهم وبين المسلمين 0 فلبسوا الملابس الفاخرة وتشبهوا بالمسلمين واهتموا بأدوات الزينة والجواهر الثمينة واستعمال مختلف أنواع الاثاث الفخمة ، كما اهتموا بشراء الملابس الثمينة التي تضيف الفخامة والابهة عليهم 0 وكان بعض هذه الملابس ذات طابع شرقي 0 اذ أن الملابس الشرقية كانت تمتاز بانها فضفاضة وزاهية الالوان وموشاة بالحرير والتطريزات المختلفة 0 واتبع الصليبيون في بناء بيوتهم وقصور الملوك والامراء الطراز العربي في البناء المتلائم مع ظروف البلاد وأحوالها 0 واتخذوا لبيوتهم وقصورهم من الاثاث ما يتفق مع الروح الشرقية 0 وكان الفارس الصليبي يرتدي برنساً من الحرير ويضع العمامة على رأسه في أوقات السلم 0 كما كان يرتدي فوق درعه سترة من الكتان للوقاية من حرارة الشمس عند الخروج الى القتال 0 ويجعل على خوذته كوفية مثل التي يضعها الفارس العربي على رأسه 0 (9) والى جانب ذلك فقد قلد الصليبيون المسلمين في الاستمتاع بالحياة ، حيث تأثر الصليبيون في مدن فلسطين بعادات اهل البلاد مثل عادة الاستحمام في الحمامات العامة التي كانت من العادات الشائعة عند أهل فلسطين 0 استمر اهتمام الصليبيين بالحمامات والعناية بها على أكمل وجه 0 فقد كانت حمامات بيت المقدس حمامات نظيفة وكان يجري في الحمام حلاقة شعر الرأس، وازالة الشعر الزائد عن الجسم 0 وكان الحلاق يقوم بازالة الشعر للرجال 0 بينما تتولى البالانة وهي مستخدمة تعمل بأجر في الحمام ازالة الشعر من على جسم النساء 0 فكان الرجل الصليبي يحضر زوجته الى الحمام، ولا يجد حرجاً عندما يطلب

من الحلاق العربي أن يزيل لها الشعر الزائد عن جسمها 0 أما المسلمون فقد كانوا يشدون المنزر على وسطهم أثناء الاستحمام في الحمامات العامة لأجل ستر عوراتهم بينما انكر الصليبيون هذه العادة وكانوا يستحمون عراة 0(10)

من العادات الأخرى التي كانت شائعة اختلاط الرجال بالنساء دون أن يكون لديهم احساس بالغيرة نحو بناتهم وزوجاتهم وهو ما يتنافى مع العادات والتقاليد الاسلامية ، ولهذا فقد استنكرها المسلمون 0 ولم يقتصر الامر على الرجال العاديين من الصليبيين بل وصل الامر الى رجال الدين الذين كانت لهم علاقات غير شرعية ببعض النساء ،مثل علاقة البطريك هرقل بطريك القدس مع باشيا دي ريفيري زوجة احد التجار الصليبيين في مدينة نابلس التي حضرت اليه في بيت المقدس عدة مرات، ثم اتخذها عشيقه للعيش معه بعد وفاة زوجها، بعد ان اشترى لها بيتاً جميلاً، وجعلها بالقرب منه في بيت المقدس 0 (11)

وتحدثت المصادر عن حياة تلك المرأة التي جاءت الى الشرق واثارت اهتمام المسلمين لما حملته من مظاهر جديدة 0 فقد شاركت النساء في القتال الى جانب الرجال 0 وهذا ما ذكره ابن واصل سنة (697هـ/1298م) عن مشاركة الفرنجيات في معركة عكا العظمى في القتال الى جانب الرجال 0 كذلك كن يشاركن في حمل الماء للرجال لاطفاء ظمئهم 0 كما كن يشجعن الرجال على القتال والصبر والدفاع 0 بينما تحضر العجائز الفرنجيات نساء من غرب اوروبا بهدف الترفيه عن الجند وقد انعكس ذلك سلباً على بعض عساكر المسلمين الذين أخذوا بارتياح تلك الاماكن بعدما لقوه من تشجيع من الفرنجة حيث

هيئوا لهم كافة السبل من أجل هذه الغاية 0 (12) وكان من مظاهر تدني مكانة المرأة الفرنجية انتشار أسواق الخمرات وبائعات الهوى في المدن 0 وقد اثر ذلك تأثيراً على قواتهم العسكرية وخاصة في أوقات الشدة والحروب ،حيث بذلت الجهود للحد من تلك الرذائل 0 (13)

واستخدم الفرنجيون في بيوتهم الخدم 0 وقامت المربيات من سكان البلاد الاصليين أي الفلسطينيين برعاية اطفالهم 0 وتولى السياس المسلمون تدريب خيولهم 0 واعتمدوا في علاج الامراض التي اصابتهم على الأطباء العرب والمسلمين 0 (14)

مارس الفرنجة ألواناً متعددة من الترفيه والتسلية كالغناء والرقص 0 وأغرموا بالصيد ومسابقاته التي كان يحضرها أعداد كبيرة من الناس للتمتع بمشاهدتها 0 (15)

تعرض الوجود الصليبي للخطر في الفترة الأولى من الحكم المملوكي 0 فقد تم تحرير كثير من المدن الفلسطينية وطرد الصليبيين منها، مما دعى ملك قبرص هنري الثاني الى طلب النجدة من اوروبا وتدعيم مركزه في عكا بتتويجه ملكاً 0 واجراء اتصالات مع المغول من أجل ذلك 0 وقد أثمرت هذه الجهود حيث استجاب بعض الفلاحين والمتعطلين من سكان المدن الصغيرة في شمال ايطاليا بالقدوم الى عكا تحت قيادة أسقف طرابلس سابقاً 0 وأخذت النجدة تتوالى من اوروبا وقبرص بسبب شعورهم بالخطر الكبير على المملكة الصليبية 0 وعلى وجودهم في الشرق باكملة، وبهذا ازداد حجم سكان عكا ورفع من قدرتها العسكرية 0 حيث اجتمع داخل أسوار هذه المدينة طوائف عدة تمثل مختلف الأمم الأروبية 0

وأخذت كل طائفة تمارس دورها بغير تنسيق مع الطوائف الأخرى 0 حيث كان في عكا سبع عشرة سلطة مستقلة 0 ونجم عن هذا الأمر فوضى كبيرة أضرت بالوجود الصليبي في المدينة 0 (16) وقام القادمون الجدد من الإيطاليين باثارة المزيد من الفوضى والاخلال بالامن 0 واخذوا يسلبون وينهبون التجار والباعة المسلمين علاوة على الصراعات بين البيوتات التجارية التابعة لجنوة والبندقية وسواهما 0 وساء الأمر في سنة (689 هـ/1290م) حيث انفجرت أعمال العنف داخل عكا وخارجها ضد المسلمين 0 ونتج عن هذا الامر قتل كثير من المسلمين على يد الصليبيين ونهب الكثير من أموالهم وبضائعهم 0 وهذه التعديت زادت من خطورة الوضع 0 وظل الأمر على هذا الحال الى أن تم وضع حد للوجود الصليبي وتم طردهم من هذه البلاد نهائياً في السنة اللاحقة حيث تسارع الفرنجة نحو الميناء وتزاحموا على الارصفة للهرب 0 وما أن وصلت أخبار تحرير عكا الى المناطق الساحلية التي كانت ما تزال بأيدي الفرنجة مثل عنتيت وصور وصيدا وبيروت حتى هربوا تاركين البلاد لاصحابها 0 (17) أن العديد من الفرنجة قد لاقوا حتفهم في المعارك مع المسلمين، ومن بقي منهم في فلسطين كانوا أعداداً قليلة معظمهم من البولاني الذين آثروا البقاء في فلسطين التي ولدوا وعاشوا فيها 0 وقد اندمج هؤلاء تدريجياً في الخليط السكاني وذابوا فيه 0

الجاليات الأوروبية

قدمت الى فلسطين بعض الجاليات الأوروبية في الفترة الأيوبية والمملوكية وسكنت في المدن الساحلية وبيت المقدس 0 وكانوا في غالبيتهم من التجار الذين اقتضت تجارتهم ان

يعيشوا هم وعائلاتهم في مدن الساحل مثل عكا ويافا وفي مدن أخرى مثل القدس ونابلس
 0 وقدّم معظمهم من صقلية وجنوة والبندقية 0 وقد سكنوا في أحياء خاصة بهم ولم يتعاملوا مع
 الآخرين الا في نطاق الصفقات التجارية التي يكونون طرفاً فيها 0 وضمت هذه الأحياء التجار
 الايطاليين وعائلاتهم والقساوسة الذين قدموا لاداء الطقوس الدينية في مختلف المدن التي
 يقيمون فيها 0 كما ضمت الموظفين وخصوصاً القناصل ومساعدتهم واداريي الحي ، كما
 تواجدت فرق رهبانية في مناطق مخصصة لها وكان لهم دور كبير في علاج المرضى
 وتقديم الأعمال الخيرية اضافة الى الابعاء التجارية 0 وكان بعضهم يسعى الى الاقامة الدائمة
 في فلسطين بسبب رواج تجارتهم وأرباحهم الكبيرة ، وكانوا من جنسيات مختلفة عديدة من
 البلغار والالمان والانجليز 0 وتواجدت طوائف الموارنة الذين كانوا يتبعون الكنيسة الشرقية
 وجاليات مسيحية من الأرمن واليونان 0 و سادت بينهم لغات اوروبية مختلفة 0 فمثلاً سادت
 اللغة الايطالية في الاحياء التي يسكنها الايطاليون 0 واللغة الألمانية في الأحياء التي يسكنها
 الالمان ، كما أتقنوا أكثر من لغة 0 واستخدموا في حياتهم اليومية أكثر من لغة حسب الظرف
 الذي تمليه عليهم المصالح التجارية 0 (18)

رحب سلاطين المماليك بمجيء بعض الاوربيين الى فلسطين بغرض التجارة 0 فقد
 استقبلوا رعايا الجاليات الاوروبية بترحاب 0 وحرص الأوربيون عامة والايطاليون خاصة
 على تأسيس علاقات مع المماليك حسب اتفاقيات اقتصادية لتحقيق الامتيازات الخاصة للتجار
 الأوربيين فتردد التجار على الأسواق المملوكية لشراء حاصلات الشرق 0 وتضاعفت أعداد

القادمين الى المدن والثغور المملوكية 0 فجلبوا السفن والقطران والخشب والحديد والبارود من الأسواق الأوروبية واشترى التجار الأوروبيون البضائع الشرقية كالتوابل والفلفل والعمود والبخور والكتان والقطن والزجاج 0 وكان يفد الى موانئ فلسطين والإسكندرية تجار من فينسيا (البندقية) وجنوه وصقلية 0 وأقام السلاطين الأيوبيين والمماليك علاقات تجارية مع روسيا والدنمرك وفنلندا وبيزا وناربون ومرسيليا وكاتالونيا وإنجلترا 0 وحتّى العمليات الحربية لم تؤد الى تقلص العلاقات التجارية 0 فقد ظلت مدينة عكا من أكثر الموانئ انتعاشاً على سواحل المتوسط ، واستمرت قوافل التجار من مصر عبر مدن فلسطين الى دمشق ومدن الشام دون انقطاع 0 حيث ارتكزت الأنشطة لهؤلاء التجار على خطوط بحرية منتظمة ومنظمة جيداً بين ايطاليا وثغور الشام وفلسطين وقامت بتأسيس العديد من الوكالات التجارية في المدن الفلسطينية 0(19)

المغاربة

أطلق اسم المغاربة على الفئة التي قدمت من جهة الغرب من الاندلس وشمال افريقيا 0 واستمرت هذه الفئة بالتوافد على الشام ، وخاصة فلسطين وبيت المقدس بالذات 0 ففي الفترة الأيوبية والفترة المملوكية كانت هذه الفئة تفضل السكن بالقرب من الاماكن الدينية كالمسجد الأقصى 0 وقد حصلت هذه الفئة على اعتراف كطائفة مستقلة لها حقوق وامتيازات عديدة ابان حكم "الافضل علي بن صلاح الدين" في دمشق وسميت الحارة التي سكنوها في القدس باسم حارة المغاربة الواقعة الى الجهة الجنوبية من المدينة بالقرب من الحرم الشريف

0 وجعل "الافضل علي" وقف حارة المغاربة بأكملها على جميع من فيها من ذكور واثاث وتوزيعه عليهم 0 وكان للمغاربة مؤسسات مستقلة مثل جامع المغاربة وزاوية المغاربة جنوب غرب الحرم والمدرسة الافضلية التي تقع ضمن حدود حارتهم ، والذي يعود الفضل في تأسيسها "للأفضل بن علي" 0 وكان المسؤول عن المغاربة شخصاً ينتخب من بينهم ويسمى شيخ المغاربة 0 وقد سعى الافضل من خلال أفضاله على المغاربة الى مساعدة المغاربة من جهة ، والمحافظة على منطقة البراق الشريف من جهة أخرى 0 وعاشت المدرسة الافضلية مئات السنين وأصبحت في القرن التاسع عشر دار سكن يقيم فيها فقراء المغاربة ، الذين كانوا مستقلين من الناحية الثقافية 0 (20)

لقي المغاربة في القدس الرعاية الكبيرة من قبل سلاطين المماليك وكانوا دائماً يقدمون لهم الدعم والعون والاعفاء من الضرائب في بعض الأحيان 0 (21)

في مطلع القرن السادس عشر ووفق الاحصائيات العثمانية لدافعي الضرائب كان يقيم في القدس 31 عائلة مغربية يسكنون حارة المغاربة التي أقطعت لهم 0 (22)

وظلت هذه الحارة عامرة بسكانها الذين تعود أصولهم الى الأندلس وشمال افريقيا، الى أن قامت الجرافات الاسرائيلية عام 1967م بتدمير هذه الحارة بعد احتلال المدينة 0 (23)

الجاليات الشرقية

الهنود

سكنت فلسطين جالية هندية صغيرة تركزت في القدس والرملة، وكونت لها زاوية خارج باب الأسباط شرقي مدينة القدس 0 وقدمت هذه الجالية الى فلسطين ابان الهجمة الصليبية 0 وأثناء هجمات المغول 0 أما اليوم فهناك عائلة في فلسطين تعرف بعائلة الهندي أو الهندية وتتركز في القدس والرملة واللد 0 حيث تعود بجذورها الى بلاد الهند التي قدمت منها 0 (24)

الأفغان

رافقت جماعة من الأفغان صلاح الدين الأيوبي للمشاركة في تحرير فلسطين 0 وبعد الانتصار في معركة حطين انتقلوا الى بيت المقدس وشاركوا في فتح المدينة 0 وقد اختار بعضهم السكن في منطقة قريبة من الحرم القدسي 0 وفي العهد المملوكي قدمت جالية أفغانية صغيرة من منطقة غور الجبلية الى فلسطين وانضمت للسكن الى جانب الفئة السابقة 0 وصار يطلق على الحارة التي سكنوها باسم حارة الغورية 0 كما عرفت أيضاً بحارة الأفغاني 0 وهناك عائلة في القدس تحمل هذا الاسم الى اليوم رغم اندماجهم في المجتمع الفلسطيني 0 (25)

المشاركة

في منتصف القرن الثالث عشر قدمت جماعة من بخارى وسمرقند وأواسط بلاد فارس وسكنت الجهة الشمالية الشرقية من مدينة القدس بالقرب من مسجد المئذنة الحمراء الحالي⁰ وعرفت هذه الجماعة بالمشاركة لقدموها من مناطق الشرق⁰ وسميت الحارة التي سكنوها بحارة المشاركة⁰ (26)

كما نزحت من أواسط آسيا جماعات أخرى ، وهذه في أغلبها من المؤمنين البسطاء والعلماء⁰ منهم جماعة من منطقة هراة في أفغانستان وينتسب إليها شمس الدين الهروي ، وجماعة من أردبيل التي ينتسب إليها علاء الدين بن صدر الدين الأردبيلي ، وجماعة من منطقة خوي في أذربيجان⁰ والتي ينتسب إليها شهاب الدين محمد بن أحمد الخوي⁰ وقدمت جماعة من الموصل في العراق وسكنت مدينة القدس والرملة وعرفت بعائلة الموصلي وجماعة من بغداد في العراق عرفت بعائلة البغدادي⁰ وقد حرصت هذه الجماعات على السكن في بيت المقدس لتكون على قرب من المسجد الأقصى⁰ كما ذابت هذه الجماعات في الخليط السكاني الفلسطيني، وإن ظلت تحمل أسماءهم المناطق التي قدموا منها⁰ (27)

(4) المغول

سكنت فلسطين جماعات من المغول كانت قد هربت سنة (695هـ/1269م) من بلادهم خوفاً من القائد المغولي غازان⁰ وعرفت هذه الجماعات بالعويرانية أو الأديراتية⁰ وقد عطف عليهم السلطان كتبغا لأنه كان من أصل مغولي، وأنزلها ساحل المتوسط بين

عتليت وفاقون 0 ولكن هذه الجماعات لم تتمكن من الحفاظ على نفسها كجماعة عرقية متميزة ، وانما ذابت في المحيط الجديد الذي لجأت اليه 0 ويقول عنها المقريري " وقد هلك من العويرانية عالم كثير، وأخذ الأمراء أولادهم الشباب ، وتنافس الأمراء والأجناد في أخذ صبيانهم وبناتهم، ثم انغمس من بقي منهم في العسكر والجنديّة ، وتفرقوا داخل الممالك ودخلوا في الاسلام ، واختلطوا بأهل البلاد " 0 (28)

الأتراك والجراكسة

الترك مصطلح يعني مجموعة غير متجانسة من القبائل التي تعيش على أطراف الصين الشمالية والغربية وهضبة آسيا المركزية في البراري شمال أوزبكستان وطاجيكستان ومنطقة السهوب حول بحر قزوين وأطراف سيبيريا ، حيث كانت تقيم عناصر بدوية تعتمد على تربية الماشية والحيوانات الأخرى مثل الخيول 0 هذه هي البيئة التي قدم منها عالم الممالك على شكل غلمان وأسرى ومرترقة 0 وقد جيء ببعضهم أطفالاً وغلماًناً اشتراهم تجار وباعوهم للأمراء والقادة المماليك في أسواق الرق والنخاسة 0 سكن الأتراك والجراكسة في كافة انحاء فلسطين التي كانت تابعة للسلطات المملوكية وشكل هذان العنصران فئة مهيمنة تولت مهام الحكم والادارة 0 وشكلا طبقة اقطاعية عسكرية حظيت بامتيازات كبيرة جعلتها تتميز عن باقي العناصر السكانية في انحاء فلسطين في النيابات الثلاث صفد وغزة وبيت المقدس بما حازته من املاك واقطاعات درت عليها أرباحاً كبيرة 0 فقد منحت اقطاعات كثيرة وواسعة مثل التي منحها لهم السلطان الظاهر بيبرس عقب

معركة ارسوف سنة (663هـ / 1265م) وجعلها اقطاعات تملك 0 فقد وزعت عليها اراض كثيرة من اراضي ولاية نابلس وصفد وعكا وكفر كنا واكسال 0 وقد اصطحب هؤلاء الموظفون والاجناد عائلاتهم من أجل بذل الجهود الكبيرة في الدفاع عن الأرض التي منحت لهم 0 فهي تعني لهم أرض وأسر ومصدر رزق 0 وكان سلاطين المماليك يغدقون المنح والاقطاعات على اتباعهم وممالكهم بشكل كبير 0 وعاش في نابلس أعداد كبيرة من هذين العنصرين وتكونت منهم الحامية العسكرية التي دافعت عن الولاية 0 وقد استمر وجودهم في المدينة وسط الخليط السكاني الموجود فيها 0 (29)

تواجد في صفد عدد كبير من الاتراك والجراكسة يزيد على أربعة الاف كان معظمهم من الجند والفرسان 0 وبعد سقوط الدولة المملوكية بقي بعضهم في صفد وصاروا جزءاً من سكانها بينما تفرق البعض الآخر في بقية مدن فلسطين 0 وقد أشارت نتائج المسح العثماني في مطلع القرن السادس عشر الميلادي الى وجود 60 عائلة و 300 فرد منهم في صفد وحدها 0 كما أشارت النتائج نفسها الى وجود أعداد أخرى منهم في القرى القريبة لصفد مثل كفر كنا وقرية اكسال قرب الناصرة 0 وكانوا في معظمهم من أجناد الحلقة الذين تقاعدوا من الخدمة العسكرية المملوكية واستقروا في هذه المناطق (30)

الأكراد

يعود وجود الاكراد في فلسطين الى بداية القرن الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي ، فقد اسكنهم شبل الدولة نصر بن مرداس في حصن الاكراد في لبنان عام (

422هـ / 1030) واستمروا يقيمون فيه حتى الاحتلال الفرنسي للحصن سنة (503هـ — / 1109) وقد بلغ الاكراد شأنًا كبيراً فيما بعد خاصةً حينما تمكن صلاح الدين الايوبي (الكردي الأصل) من اقامة الدولة الايوبية، حيث اصبح الاكراد طبقة عسكرية واقطاعية متميزة ومسيطرة في مصر وبلاد الشام، بل أصبحوا حكام البلاد ونهضوا بدور كبير في محاربة الفرنجة وتواجدت أعداد كبيرة منهم في منطقة طبريا وعكا وبعض قراها الساحلية وصفد والخليل والرملة وغزة والقدس ونابلس حيث منح السلطان صلاح الدين نابلس لابن اخته حسام الدين لاجين بعد فتحها واخراج الفرنجة منها لتكون اقطاعاً خاصاً له بما في ذلك اعمالها وضياعها ومعاقليها 0 ولعب الاكراد دوراً كبيراً في قتال الفرنج 0 وكان الأكراد من كبار الموظفين الذين تولوا شؤون الادارة في المدن 0 وبعد انتهاء الدولة الايوبية وقيام الدولة المملوكية استمر تواجد الاكراد في فلسطين وخدم عدد كبير منهم في الجيش المملوكي 0(31) قام المماليك بتوطين قبائل كردية وتركمانية في سواحل بلاد الشام التي استرجعوها من الفرنجة بغرض حمايتها وحفظها في حال تعرضها لأية هجمات فرنجية جديدة، وذلك بسبب استعداد هذه القبائل الدائم للقتال بحكم حسن تدريبها العسكري 0 لقد أقام الأكراد في مختلف المدن الفلسطينية وسميت بعض الأحياء باسمهم 0 فقد كان هناك حي للأكراد في القدس ، وحي للأكراد في الخليل، وحي للأكراد في غزة 0 وكانت لهم حارة في صفد اسمها حارة الصواوين 0 وكثيراً ما كانوا يناصرون بعضهم البعض ، ففي سنة (878 هـ — / 1474م) تدفقت جماعات من الأكراد من مدن الخليل والرملة الى القدس لنصرة اخوانهم الذين اشتبكوا

مع جماعات قبلية أثر خلاف معهم 0(32) ودلت الاحصائيات العثمانية في مطلع القرن السادس عشر الى وجود أعداد كبيرة من الأكراد في الخليل والرملة وصفد والقدس ونابلس 0 وأشارت دفاتر الضرائب العثمانية في مطلع القرن السادس عشر الى أن عدد السكان من اصل كردي في الخليل بلغ حوالي 48 عائلة ، وفي صفد بلغ 105 عائلات و 26 عازب 0(33)

التركمان

يعود قدوم التركمان الى فلسطين الى العهد الفاطمي حيث استقروا بكثرة في مناطق طبريا والرملة وباقي أنحاء فلسطين ، الا أن أعدادهم أخذت بالتقلص منذ الغزو الصليبي 0 ثم ازدادت في العهد الأيوبي حيث دخلت جماعات جديدة منهم للمشاركة في حرب الصليبيين 0 واستمروا في تقديم خدماتهم للسلطين المماليك 0 وقد كافأهم السلطان المملوكي الظاهر بيبرس بأن أقطعهم بعض المناطق الساحلية التي افتتحها وخلصها من الصليبيين 0 مع منحهم خيلاً وأسلحة 0 وقد تعرض التركمان في نواحي قاقون لغارة فرنجية سنة(670هـ—/ 1271م) حيث قتل عدد كبير منهم ونهبت ممتلكاتهم 0 ويبدو أن التركمان قد تقلص دورهم ونفوذهم ابان حكم المماليك الذين احتكروا الأمور لصالحهم 0 ولكن لا يمكننا تجاهل دورهم في صد الهجمات الصليبية 0(34)

تواجدت أعداد من التركمان في منطقة طبرية نظراً لتواجد المياه والمراعي الواسعة اللازمة لحيواناتهم 0 كما وجدت أعداد منهم في منطقة حيفا والمنطقة الساحلية القريبة منها

وفي منطقة سهل مرج بن عامر ومنهم العلامنة 0 وفي صفد تواجدت قبيلة تركماننة عرفنت باسم (جبنى) 0 كما سكنوا فى القرى الساحلنة التابعة لعا كقرى الزىب شمال عكا ومنوات والفرج والغباسنة ومزرعة والءاعوق 0 وسكن التركمان أيضاً فى غزة حىث ىءل حى التركمان الحالى الى وءوءهم فى سنوات خلت 0 (35)

استمر الوءوء التركمانى فى هءه المنطقة كعنصر عرقى الى جانب سكان فلسطين حنى وقت متأخر من العهد المملوكى وأوائل العهد العثمانى 0 وقد ءلت الالحصائناى العثماننة التى تعود الى سنة (932هـ/1538م) على الوءوء التركمانى الكبىر فى فلسطين 0 فقد تواءل فى الرملة 54 عائلة ، وفى غزة 89 عائلة ، وفى عكا 43 عائلة ، وفى صفء 17 عائلة ، وفى طبرىا 8 عائلات 0 (36)

القبائل العربنة

ىعود الوءوء العربى فى فلسطين الى الفترة التى سبقت الاسلام حىث هاءروا الىها 0 وقد تعزز هءا الوءوء أثناء حركة الفءح الاسلامى، حىث نرحت الىها قبائل قحطان وقبائل لخم التى نزلت حول الرملة 0 ثم انءقلت الى نابلس وحول البحر المىء والجولان 0 وقد استمرت بعض هءه القبائل تعىش حىاة تنقل وترحال فى حىن اءجه البعض الآخر الى حىاة الاستقرار وممارسة الزراعة 0 (37) امتازت حىاة هؤلاء البءو بالترحال والءنقل سعياً وراء العىش 0 وهم كما ىقول (جوانفىل) " لا ىعىشون فى المءن او القرى او القصور بل ىسكنون العراء على الءوام ، وىحافظون على اهل بىءهم ، ونسائهم وأطفالهم فى اللىل ، وىرءى البءو

جلاليب طويلة تغطي جميع أجسامهم وأرجلهم وأقدامهم، فاذا أمطرت السماء تدثروا بعباءاتهم، وأخرجوا اللجم من أفواه أجيادهم وتركوها على مقربة منهم ، فاذا أقبل الصباح نشروا عباءاتهم للشمس وتركوها ، ورتبوها ، فتبدو كأنها لم تبل ، واذا أرادوا شتم أبنائهم ، صاحوا بهم لتكن ملعوناً كالأفرنجي الذي يتدرع حذر الموت" 0 (38)

شكلت القبائل العربية في القرن الرابع عشر الكثير من الاضطرابات والفوضى 0 فقد كان يدور بين القبائل المتخاصمة قتال حول مدن غزة ونابلس وطرابلس وبعليك 0 كما حدثت صراعات عنيفة بين العرب والأكراد امتدت الى القرن الخامس عشر في أحداث متفرقة حول الكرك وغزة ونابلس 0 (39) وفي شمال فلسطين وتحديداً في نيابة صفد تواجد عدد من القبائل العربية التي انتسبت الى قيس (عدنان) او يمن (قحطان) وكان نشاط ودور هذه القبائل محدوداً بسبب طبيعة النظام المملوكي العسكري الذي لعب فيه المهاجرون من قبائل الغز والتركمان والاكرد الدور الرئيسي في الاختراق العسكري وتهميش دور القبائل العربية 0 وحينما بدأ الضعف يسري في صفوف المؤسسة العسكرية ازدادت قوة هذه القبائل وقدرتها على احداث تغيير 0 فقد قامت قبائل حارثة التي سكنت صفد ومناطق اللجون وقاقون بنهب القوات المملوكية التي تراجعت امام تيمورلنك سنة (803 هـ / 1401م) ، كما انها قامت بالاغارة على الرملة ونهبت المدينة مستغلة بذلك الفوضى التي عمت المنطقة جراء زحف تيمورلنك 0 وأخذت هذه القبائل في نهب اموال الامراء والجند والمماليك الذين فروا من دمشق الى صفد 0 وتصدت لها قبائل بشارة التي كانت تسكن المنطقة 0 حيث وقفت الى

جانب السلطة المملوكية⁰ واستطاعت وقف اعتداءات قبائل حارثة على السلطة المملوكية⁰ ولكنها سرعان ما انقلبت على السلطة المملوكية وعانت فساداً في الأجزاء الشمالية من فلسطين سنة (811 هـ/1409 م) وأضررت بالسكان وهزمت جند المماليك الذين خرجوا لملاقاتهم، ومع هذا فقد وقفت هذه العشائر مرة أخرى الى جانب السلطان برقوق، واستمر بنو بشارة يشغلون مكانة مهمة من بين قبائل نيابة صفد، يهادنون السلطة المملوكية احياناً ويهاجمونها احياناً أخرى، ويقومون بأعمال النهب وتعريض البلاد للاضطراب⁰ وقد امتد نفوذهم خارج نيابة صفد وتجاوز حدود النيابة⁰ فقد أوكلت السلطنة اليهم حماية السواحل وكشفها⁰ وحدث سنة (855 هـ/1451 م) ان قامت البحرية الاسبانية بمهاجمة صور ، فتولى بنو بشارة صد ذلك الهجوم⁰ وفي نهاية العصر المملوكي اشتبكت قبائل بشارة مع قبائل أخرى في ظل الصراع على النفوذ⁰⁽⁴⁰⁾

ومن الوظائف الأخرى التي تواجدت في نيابة صفد وظائف سلطانية أطلق عليها تقدمية العشير أو امرة عرب الشام وكان يتولاها أحد شيوخ العشائر الأقوياء⁰ وقد توجب على كل من يحمل هذا المنصب أن يقوم بعدد من الوظائف والمهام لصالح الدولة مثل الحفاظ على طرق المواصلات ، وحفظ الامن ، والمشاركة في حملات السلطنة ، والمساهمة في القضاء على حركات التمرد والانفصال ، والمساعدة في جمع الضرائب ، على انه في بعض الاحيان كانوا ينقلبون ضد السلطة^{0 (41)}

وسكنت في نيابة صفد عشائر كثيرة لكن أعداد أفرادها كان قليلاً مثل عربان عيسى بن الكابولي ، وعرب ابو شوشة ، وابن كبرة ، وعرب محمد بن منازع، وقد وجدت عشائر اخرى في مرج ابن عامر ، كبني زيد ، العمور ، بني زبر ، الظهور ، العمرات ، السلة ، بني سالم ، دعاكنة ، بني سيري، ديونة ، فضيل ، برامكي التي كانت أعدادها قليلة 0 (42)

تواجد في نيابة غزة العديد من القبائل البدوية ، وكان معظمها بطون من جرم الطائية وجذام القحطانية واستوطنت في القسم الجنوبي من النياحة 0 وقد كانت هذه القبائل كثيرة ومتعددة مثل: بنو جرم ، وآل احمد، والأحامدة ، وبنو جذيمة ، وبنو تمام ، وبنو جميل ، وآل خفلة ، وبنو خولة ، وبنو رضيعة ، والرفنة، وبنو شبل ، والعاجلة ، والعبادلة ، وبنو عيسى ، وبنو غوث ، وبنو غور ، وبنو هرماس ، وآل عوسجة ، وآل محمود ، وآل القدرة ، وبنو قمراء ، وبنو كور ، وآل نادر ، كانت هذه القبائل تتبع قبيلة جرم بينما بنو اسلم ، وبنو جابر ، وبنو عقبة ، وبنو عائذ من القحطانية ، ويبدو ان حياة هذه القبائل كانت استمراراً لحياة العرب في الايام الماضية 0 فكانت تعتمد على رعي الماشية ، بالإضافة الى المهمات التي كانت تكلف بها من قبل السلطات المملوكية 0 كما أسهمت في خدمة الدولة المملوكية وخاصة توليها حراسة طريق البريد ، واسهاماتها في حملات الدولة ، واعمال التصدي للمغول 0 (43) الا أن هذه القبائل عانت من الصراع فيما بينها خاصة بين جرم وجذام 0 وبالرغم من الخدمات التي كانت تقدمها للسلطة المملوكية فانها كانت تتقلب عليها بين الحين والآخر 0 كما كانت هذه القبائل تستغل حروب المماليك مع العدو الخارجي وتقوم بالعصيان والنهب والسلب 00 ففي

سنة (680 هـ / 1281م) كانت السلطة المملوكية منشغلة بالمخاطر الناجمة عن المغول وعن الوجود الصليبي فاستغلت هذه القبائل ذلك وقامت بالاغارة على عدد من المناطق خصوصاً غزة وما جاورها ،والقدس ونابلس 0(44)

شهدت السنوات الأخيرة من النصف الأول من القرن الثامن للهجرة انتشار الجوع والقحط والأمراض والأوبئة مثل الطاعون الذي أصاب أطراف شبه الجزيرة العربية 0 وكان هذا سبباً في هجرة بعض القبائل مثل قبيلة ثعلبة الى فلسطين وخصوصاً الى غزة 0 واصطدمت هذه القبيلة بقبائل جرم 0 وجرت بينهما حروب مما دفعها للاغارة على مناطق الغور والجبل وسلب ما فيه من زروع وحبوب وفاكهة 0 وقد رافق ذلك قتل الكثير من الناس 0 ولم يتحسن الوضع الأمني الا بقدم نجدة من دمشق 0 حيث ولي الأمير سيف الدين دلتجي نيابة غزة لضبط الأمور 0 وتم ترحيل عشائر ثعلبة الى بركة الحجاز 0 (45) بعد فترة قصيرة قامت قبائل جرم بقيادة أدي بن فضل بنهب مدن اللد والرملة ، ولم يتوقف ذلك الا بمقتل أدي 0

تجددت الحرب بين قبائل جرم والعائد في سنة (828هـ / 1425) 0 ووقف نائب غزة الى جانب قبائل العائد التي انهزمت وقتل نائب غزة على أثر ذلك 0 وعلا شأن قبائل جرم واستبد رجالها ببلاد غزة والرملة ونهبوا المسافرين وقطعوا الطرقات وانعدمت سلطة الدولة ونوابها في تلك النواحي 0 (46)

يلاحظ هنا كثرة القبائل التي كانت تسكن نيابة غزة ، وهذا يعود الى طبيعة المنطقة شبه الصحراوية التي تصلح لعيش هذه القبائل وممارسة حياتها 0 وما زالت بعض الاسماء لهذه القبائل والبطون موجودة الى يومنا هذا 0 فنعرف اليوم عائلات القدرة ، والعائذ، وبنى سليمان، والعبادلة ، بينما تغيرت أسماء القبائل الأخرى وذابت ضمن الخليط السكاني في
 النيابة 0 (47)

وفي مدينة عكا وما حولها سكنت احدى القبائل العربية القحطانية التي تنتسب الى قضاة، والتي استوطنت منطقة جنوب بلاد الشام بعد الفتوحات الاسلامية 0 وقامت في الفترة الصليبية بشن هجمات على القوات الصليبية وأوقعت بها خسائر كبيرة 0 وقد انطلقت أحياناً بدعم من دمشق 0 وأحياناً أخرى من تلقاء نفسها طمعاً في الحصول على الكثير من الأموال والغنائم 0 أما في الفترة المملوكية فقد استمرت هذه القبائل بالقيام بنفس الدور الذي كانت تقوم به قبائل حارثة وبشارة وجرم والعائذ في صفد وغزة 0 (48)

وعاشت في مدينة بيسان قبائل عاملة وكندة اللتان تعودان بأصولهما الى الأشعريين 0 وكان هؤلاء العرب من المسلمين الذين يعتنقون المذهب السني والمذهب الشيعي الذي يعود انتشاره الى عهد الفاطميين حيث خضعت المدينة لهم 0 في الفترة الفرنجية خلت المدينة من المسلمين لأن قادة الفرنجة قاموا باجبار المسلمين على مغادرة المدينة واحضار نصارى عجلون عوضاً عنهم 0 وبعد تحرير المدينة في الفترة الأيوبية والمملوكية عادت العشائر العربية للاستقرار

في المدينة والمنطقة المحيطة بها 0 وقد سكنت الى جانبها عائلات كردية وتركمانية 0 وكانت هذه القبائل في بيسان أكثر استقراراً من بقية المدن الأخرى في فلسطين 0 (49)

العبيد

انتشر الرق في بلاد الشام خلال العصور الوسطى ، وتواجدت طبقة العبيد في المجتمع الفلسطيني الذين كانوا يباعون كالمواشي 0 وكان يعاملهم الاقطاعيون الفرنج معاملة سيئة 0 (50)

كانت الحروب الصليبية هي المصدر الرئيس لهؤلاء العبيد في العهد الأيوبي والمملوكي حتى نهاية القرن الثالث عشر 0 حيث كانوا يجلبون من سوريا 0 ويؤخذون بمثابة غنائم مباشرة من المعارك الحربية 0 أو يتم شراؤهم من الاسواق 0 فقد تم بيع الاسرى المسيحيين بعد معركة حطين في دمشق بثلاثة دنانير للعبد ، واحياناً كان الاسير يباع بزواج من الصنادل 0 وبعد تحرير القدس تحول الى العبودية ستة عشر الف اسير 0 ووزع صلاح الدين الكثير منهم على امرائه المحاربين 0 في سنة (591هـ/1197م) حملت المراكب العائدة من قيليقية الواقعة على سواحل سوريا الشمالية 550 اسيراً 0 ويتحدث أبو شامة عن معركة مع الصليبيين في غزة وعسقلان سنة (642هـ/1244م) فيقول " انه بعد المعركة تم جلب كل الأسرى الى القاهرة 0 والكثير من الصليبيين ظل اسيراً في مصر " كما ان المقريري يذكر ان السلطان الظاهر بيبرس وزع على جيشه عدداً من الاسرى العبيد ، وقد تناقص عدد العبيد في

فلسطين بعد اجلاء الصليبيين⁰ وبعض العبيد تمكن من الهرب من سوريا وفلسطين الى

ارمينيا الصغرى نتيجة الغزو المغولي ، الا أن عددهم كان قليلاً جداً⁰(51)

كان العبيد يشتغلون كخدم في قصر السلطان ، او قصور الامراء والتجار ،

والنواب، وعند شيوخ القبائل البدوية ، كما تم استخدام هؤلاء العبيد كعمال في بناء الحصون

الدفاعية في عكا عشية حصارها⁰ وكان صلاح الدين قد استخدمهم من قبل في تحصين القدس

، وتم استخدامهم في الأعمال الزراعية⁰ وقد كانت أوضاع العبيد القاسية سبباً في محاولاتهم

المتكررة للهرب⁰(52)

شكل العبيد عصابات وتحالفوا مع قطاعات أخرى من العناصر المجرمة والنهابة

والجنود الفارين، والفقراء المعدمين، ونظموا جمعيات مضادة في عملية تحد للروابط الرسمية

⁰ فكانت النتيجة عنفاً واجراماً ، وقد تم استخدام هذا العنف الاجرامي لخدمة أمراء المماليك

في تصفية حساباتهم مع بعضهم البعض وتنفيذ أهدافهم⁰ وكانت هذه الجماعات تنتقي غالباً

بيوتاً معينة لتسطو عليها⁰ وكانوا يستأجرون للقيام بأعمال اغتيالات أو يندفعون برغباتهم

الخاصة في الانتقام والثأر⁰(53)

لقد كونت عصابات العبيد واللصوص معاً منظماتها الاجتماعية الخاصة بها ، واثاروا

الاضطرابات في المدن⁰ فكانوا يقومون بأعمال النهب والقتل ، ففي بداية العهد المملوكي

اندفع عمال الاسطبلات ، وغلماں الفرسان كالمجانين في دمشق والقاهرة والقدس تحت راية

رجل منشق يدعى كوراني يسرقون الاسلحة والخيول⁰ وفي القرن الخامس عشر اتاح انهيار

الدولة المملوكية وانهيار نفوذها في حفظ الانضباط بين صفوف جنودها واتباعها الفرصة للعبيد ليخرجوا عن سيطرة الدولة ومسؤوليتها ، ولما كان العبيد قد انتقلوا من عائلات أسيادهم وتفرقوا عنها أصبحت حوادث الشغب والنهب والسلب حوادث متكررة، وتذكر لنا لابيديوس تقريراً غريباً عن العبيد المتمردين الذين أقاموا دولة خاصة في المجتمع الذي يعيشون فيه شملت موظفين رسميين 0 وكان يرأسها سلطان مخلوع يحكم حكماً مطلقاً ويقضي بينهم 0 وكانوا يقدمون المأوى لعبيد آخرين 0 ويفتدون زملاءهم الذين وقعوا في الأسر 0 وكان يقدر عددهم بألفي رجل 0 بعد ذلك انقسم العبيد الى فرق مناهضة بقيادة خصوم يطالبون بعرش للشحاذين 0 الا أنه قد تم السيطرة عليهم واعتقالهم وبيعهم ثم تصديرهم الى تركيا 0(54)

انضم العبيد الى جانب الأمراء في بعض الأحيان وفي أحيان قاموا بأعمال شغب من سلب ونهب بسبب النقص في المواد الغذائية ، ولذا فقد حظرت السلطة المملوكية على العبيد حمل السلاح رغم أنهم لم يعتادوا على ذلك 0 (55)

تختلف انتماءات العبيد من الناحية العرقية والدينية 0 فهناك الرقيق الأبيض أو الاسود والرقيق المسلم أو المسيحي 0 أو من تحول عن الديانة الاسلامية الى المسيحية أو العكس، 0 وقد كانت تجارة الرقيق تجارة رائجة أستخدمت في قصور النبلاء والاغنياء واستخدم الخصيان في دور الحريم 0 وتواجدت أسواق النخاسة في كافة المدن الفلسطينية ودلت على امتنان كبير للانسانية ، فقد كان تجار البندقية يبيعون العبد بدينار، بينما بلغ ثمن الحصان

ثلاثة دنانير ، وكان الانسان يصبح عبداً اذا أسر في احدى المعارك ، أو اذا تم شراؤه من أسواق النخاسة ، أو اذا غدر به أصحابه وباعوه 0 ففي العهد الفرنسي كان لا يجوز للعبد رفع دعوى ضد سيده السابق أو مضايقته ، والا فانه سيعرض نفسه للغرامة ، أو يتم بتر أحد أعضائه ، أو اعادته الى العبودية من جديد ، وفي حال عودته للعبودية من جديد ، لا يجوز بيعه الى شخص آخر ، ولكن أولاده يبقون احراراً ، أما في حالة وفاته في ظل العبودية ، فان جميع ما يملك يذهب الى سيده أو الى أولاد سيده في حالة وفاة هذا السيد 0 ومعنى هذا ان الرق كان وراثياً ، فالعبد يورث من الأب الى الابن 0(56) لم يتغير وضع العبد كثيراً في العهد المملوكي فقد اعتبر الأرقاء سلعاً 0 فلم يميزوا في الوثائق على أنهم أفراداً الا من حيث وضعهم 0 وهو أمر كان مطلوباً شرعاً لتعيين ما يمتلك 0 وكانت مثل هذه الأوصاف تعطى في سندات الشراء والايجار والبيع لغير ذلك من الممتلكات 0 ويبدو أنه لم يكن من فارق بين بيع عبد وأي نوع آخر من البضائع 0 فكانت ملكية العبيد كالمتاع يمكن نقلها ببيع مباشر من شخص الى آخر أو عبر الوكلاء ومساعدة السماسرة 0 فقد جاء في الوثيقة رقم 298 من وثائق الحرم الشريف ما يثبت أن ملكية العبد يمكن أن يتقاسمها أكثر من مالك واحد 0 وأنه كان لا بد من الحصول على موافقة مالكي العبد جميعاً قبل أن يصح بيعه 0 كما أن هذه الوثيقة تبين أن ملكية العبد تنتقل بالوراثة مثلما كان الحال مع أي نوع آخر من أنواع الملكية 0 ومثلما كان عليه الحال في العهد الفرنسي 0 (57) وفي الوثيقة رقم 650 والوثيقة 31، 32 أشارت الى أربعة من العبيد الذين عاشوا في القدس ادعوا بأن سيدهم كان قد أعتقهم قبل أن

يموت ، وقد أنكر سيدهم الجديد ذلك بحجة أن سيد العبيد السابق لم يكن قد بلغ سن الرشد بعد عندما أعتقهم ولم تحكم المحكمة لصالحهم ، ولكن هذا الأمر يبين أن المحكمة انعقدت بشأنهم 0 لقد بينت هذه الوثائق أن العبد الذي يعيش في القدس كانت فرصته في الانعتاق كبيرة ، حيث أن من بين ثلاثة وعشرين عبداً ذكروا في قوائم الممتلكات لم يبق منهم في العبودية حتى موت مالكيهم الا ثمانية 0 وقد يكون هذا في القدس وليس في مدن أخرى والسبب أنها كانت تضم مجتمعاً كبيراً من العلماء والأئمة الذين كانوا يحرصون على تطبيق الشريعة الإسلامية ويحرصون على عدم مخالفتها ولا يفضلون وجود مثل هذه الفئة 0 (58) كما أشارت وثائق الحرم الشريف الى لفظ مملوك في الخدمة العسكرية ، غير أننا لا نستطيع أن نعرف من خلال الوثيقة رقم 649 ما اذا كان المملوك (بلبان) رقيقاً في الخدمة العسكرية أم في الخدمة المنزلية 0 ولكن يشير لفظ (بلبان) الى أن صاحبه كان رقيقاً أبيضاً لا أسوداً ، حيث كانت تجارة الرقيق ناشطة في أواخر القرن الرابع عشر 0 لا سيما وأن سلاطين المماليك كانوا يدفعون مبالغ كبيرة مقابل الحصول عليهم 0 وأن من ملك العبيد لم يكن يبدو عليهم أنهم من بين نخبة المجتمع في تلك الفترة 0 وأن معظم الأرقاء كانوا اناثاً 0 وهذا يرجح أن هؤلاء يعملون في الخدمة المنزلية ، بينما كان الأرقاء الذكور يستخدمون في الزراعة وعالم التجارة والمال أو ما يقاربه 0 وكان من بين مالكي العبيد مسؤولون عسكريون أو زوجاتهم وتجار أو زوجاتهم ، وحرفيون 0 وبحسب الاجراءات التجارية التي تخص عبيداً نجد تجاراً يشترون ويبيعون ومسؤولاً دينياً يشتري ويبيع ونساء يشترين ويبيعن 0 (59)

وقد كانت أثمان العبيد في الفترة (783 - 795) هـ (1381-1392م) تتراوح بين ثلاثمائة درهم، حيث دفعت لعبد نوبي يافع سنة (795هـ / 1381م) و 550 درهم حيث دفعت لنوبية راشدة سنة (787هـ / 1385م) ويرتبط الثمن الذي يدفع مقابل العبد بمدى قدرة العبد على العمل وخدمة السيد بمعنى أنه كلما كان العبد بالغاً قادراً يكون سعره أكبر 0 فقد بيع مملوك كان يعمل في خدمة قاضي القضاة برهان الدين ابن جماعة بعد وفاة سيده ب 600 درهم 0 (60)

خاتمة

ضمت البنية السكانية في فلسطين في العصر المملوكي فئات مختلفة في الدين واللغة والعرق ومن بين هذه الفئات السكانية فئة العرب التي شكلت أغلبية سكان فلسطين ، والتي تعود أصولها الى تلك القبائل العربية التي هاجرت الى فلسطين قبل الفتح الاسلامي وبعده 0 لقد تبين لي هيمنة فئة الفرنجة عسكرياً ابان الاحتلال الفرنجي وامتلاكهم لمدن فلسطين حين أدى هذا الى نزوح بعض السكان من المدن 0 وقد تأثر الفرنجة بالعوادات العربية الا أنهم بقوا في نفس الوقت متمسكين في عادات الشعوب الأوروبية التي تناقضت مع العادات العربية والاسلامية 0

تواجدت الجاليات الاوروبية في فلسطين في الفترة المملوكية خصوصاً في المناطق الساحلية حيث سكنت أحياء خاصة بها 0 وتعامل هؤلاء مع غيرهم ضمن نطاق الصفقات التجارية 0 لقد وفدت جماعات اسلامية الى فلسطين قدمت من جهة الشرق والغرب أهمها جماعة المغاربة والجالية الهندية والجالية الأفغانية 0 وهذه الفئات حرصت على السكن في الأماكن الدينية المقدسة ، خاصة في القدس ليكونوا بالقرب من المسجد الأقصى وقبة الصخرة 0 وشهدت فلسطين قدوم قبائل كردية وتركمانية تم اسكانها في السواحل الفلسطينية لتكون درع حماية من أجل صد الهجمات الأوروبية والصليبية 0 وقد كان للقبائل العربية دور كبير في مساندة السلطة المملوكية وحفظ الأمن رغم انها عملت على تقويض السلطة

المملوكية وشكلت خطراً كبيراً عليها حيث كانت تقوم بأعمال السلب والنهب خصوصاً في

الفترة الأخيرة من الحكم المملوكي 0

اشتملت الفئات السكانية أيضاً على عنصري الأتراك والجراكسة اللذين تواجدا في

فلسطين كفئة مهيمنة تولت مهام الحكم والإدارة ، وشكلت طبقة إقطاعية عسكرية حظيت

بامتيازات كبيرة ميزتها عن باقي السكان 0

ولا شك أن سكان فلسطين قد تأثروا بالأزمات الاقتصادية والحملات العسكرية

الصليبية والمغولية وأمراض الطاعون والمجاعات ، وأعمال التمرد والعصيان التي عمت

الدولة المملوكية في أواخر عهدها، الأمر الذي أدى إلى تناقص عدد أفراد هذه الفئات

واندماجها في الخليط السكاني 0

الهوامش

1-رئيسة عبد الفتاح 0 نابلس في العهد المملوكي 0(نابلس : دار الفاروق للثقافة والنشر،

1999م) 0 ص 88

2-محمد أسامة نعييرات 0 إقطاعية بيسان ودورها في الصراع الإسلامي الفرنسي 0(عكا:

مؤسسة الأسوار ، 2002م) 0 ص 202-203 0

3-سعيد عبدالله جبريل 0 الممتلكات الكنيسية في مملكة بيت المقدس الصليبية 0

(الاسكندرية : دار المعرفة الجامعية، د 0 ط، 1989) 0 ص 468 0

4-العزة 0 نابلس في العهد المملوكي 0 ص 88 0

5-يعقوب الفتيري 0 تاريخ بيت المقدس 0 ترجمة سعيد البيشاوي، (عمّان: دار الشروق،

1998) 0 ص 63-66 0

6-نعيرات 0 اقطاعية بيسان ، ص 204 0

7-الموسوعة الفلسطينية، القسم الاول ، (دمشق:هيئة الموسوعة الفلسطينية،المجلد الثالث،

1984) 0 ص 445-446 0

8-الموسوعة الفلسطينية ، ص 447 0

9-سعيد عبدالله جبريل البيشاوي 0 نابلس خلال الحروب الصليبية 0 (عمّان: د 0 ن ،

1991م) 0 ص 196-197 0

10-البيشاوي ، ص 198 0

11-البيشاوي ، ص 199 0

12-ابو اليمن مجير الدين العلمي الحنبلي 0 الانس الجليل بتاريخ القدس والخليل 0 (الخليل:

مكتبة دنديس، ج 1 ، 1999) 0 ص 362 0

13-أبو اليمن ، ص 361 0

- 14-ستيفن رنسيما 0 تاريخ الحروب الصليبية 0 ترجمة الباز العريني ،(بيروت:دار الثقافة، ط 2، 1980) 0 ص 511-509
- 15-نعيرات، اقطاعية بيسان ، ، ص 212 0
- 16-الموسوعة الفلسطينية، الدراسات التاريخية،المجلد الثاني، (بيروت : 1990) 0 ص 552-545
- 17-الموسوعة الفلسطينية ، ص 556-555 0
- 18-عبد الرحمن المغربي 0 عكا ومنطقتها في العصور الوسطى 0 (عكا: مؤسسة الاسوار، 1997) 0 ص 286 -279
- 19-ل 0 ا 0 سيمينوفا 0 صلاح الدين والمماليك 0 ترجمة حسن بيومي،(القاهرة:المجلس الاعلى للثقافة، 1998) 0 ص 237 0
- 20-يوسف دروري 0 القدس في عصر المماليك، دراسات في تاريخ المدينة، تحرير امنون كوهين 0 (القدس: ياديتسحاق بن تسفي، 1990) 0 ص 115 0
- 21-هادية وبرهان الدجاني 0 الصراع الاسلامي الفرنجي على فلسطين في القرون الوسطى 0 (بيروت :مؤسسة الدراسات الفلسطينية ، 1994م) 0 ص 475 0
- 22-كمال عبد الفتاح وهوتيرت 0 سكان فلسطين والاردن وجنوب سوريا في أواخر القرن السادس عشر 0 (1977) 0 ص 52-36 0 بالانجليزية 0
- 23-مصطفى مراد الدباغ 0 بلادنا فلسطين 0 (كفر قرع: دار الهدى ، ج 2002، 9) 0

ص 309 0

24- دروري ، القدس في عصر المماليك ، 115

25- دروري ، ص 116 0

26- دروري ، ص 115 0

27- دروري ، ص 108-120 0

28- تقي الدين احمد بن علي المقرئ في السلوك لمعرفة الملوك 0 ترجمة محمد مصطفى

زيادة، (القاهرة: لجنة التأليف والترجمة والنشر ، ج 1 ، 1956، 0 ص 813 0

29- العزة، نابلس في العهد المملوكي، ص 90 0

30- طه تلجي الطراونة 0 مملكة صفد في عهد المماليك 0 (بيروت: دار الآفاق الجديدة ، ط

1 ، 1982) 0 ص 148 0

31- العزة، نابلس في العهد المملوكي ، ص 89 0

32- ايرا لايبديوس 0 مدن الشام في العصر المملوكي 0 (دمشق ، دارحسان ، 1985، 0 ص

150

33- عبد الفتاح وهوتيرت، سكان فلسطين والأردن في أواخر القرن السادس عشر 0 ص

36- 52 0

34- الموسوعة الفلسطينية، القسم الاول ، مصدر سبق ذكره 0 ص 572-575 0

35- الطراونة ، مملكة صفد في عهد المماليك 0 ص 147 0

36- عبد الفتاح وهوتيرت ، سكان فلسطين والأردن في أواخر القرن السادس عشر 0 ص

36- 0 52

37-العزة 0 نابلس في العهد المملوكي، ص 87- 88 0

38-جوانفيل 0 مذكرات جوانفيل في وصف الاراضي المقدسة 0 ترجمة حسن حبشي ،

(القاهرة : دار المعرفة ، ط 1) 0 ص 125-126 0

39-لابيدوس 0 مدن الشام في العهد المملوكي 0 ص 154 0

40-الموسوعة الفلسطينية ، القسم الثاني ، مصدر سبق ذكره 0 ص 568-571 0

41-الطراونة ، صفد في العهد المملوكي، ص 149 0

42-الطراونة ، ص 149-150 0

43-محمود علي خليل عطا الله 0 نيابة غزة في العصر المملوكي 0 (بيروت: دار الآفاق

الجديدة ، 1986) 0 ص 79-90 0

44-محمود علي ، ص 89 0

45-محمود علي ، ص 83 0

46-محمود علي ، ص 79-90 0

47-محمود علي ، ص 88 0

48-المغربي ، عكا ومنطقتها في العصور الوسطى، ص 282-283 0

49-نعيرات ، اقطاعية بيسان ودورها في الصراع الاسلامي الفرنجي ، ص 201-202 0

- 50- الموسوعة الفلسطينية القسم الاول، المجلد الثالث، مصدر سبق ذكره ،ص 446 0
- 51-سيمينوفا ، صلاح الدين والمماليك، ص 220 0
- 52-سيمينوفا، ص 223-226 0
- 53-لابيدوس ، مدن الشام في العصر المملوكي، ص 282-283 0
- 54-لابيدوس ، مدن الشام في العصر المملوكي، ص 285 0
- 55-لابيدوس، ص 284-285 0
- 56-المغربي ، عكا ومنطقتها في العصور الوسطى، ص 284-285 0
- 57-الدجاني 0 الصراع الاسلامي الفرنجي على فلسطين في القرون الوسطى ، ص 472 0
- 58-الدجاني، 472 0
- 59- الدجاني، ص 473 0
- 60- الدجاني ، ص 470-473 0

الفصل الرابع : الطبقات الاجتماعية والاقتصادية وعلاقاتهم بالسلطة

مقدمة

كان المماليك طبقة مختلفة عن سائر السكان في فلسطين ، فلم يتزوجوا منهم واختاروا زوجاتهم من بنات جنسهم 0 وعاشوا في عزلة عن الشعب ، فلم يهتموا بالمشكلات الداخلية والأزمات التي عانى منها المجتمع الفلسطيني من جوع ونزاعات وفتن، ولم تحظ الا فئة قليلة بعطف المماليك أو الاهتمام بهم 0 ويرجع ذلك لانشغالهم في الصراع على السلطة والنفوذ والجاه والاقطاعات ، وظلت غالبية السكان من فلاحين وحرفيين ومهنيين وزعاري وحرافيش بعيدين عن اهتمام المماليك 0 وقام المماليك بدعم فئة على حساب فئة أخرى وذلك تبعاً لمصالحهم وأهدافهم 0 ولكن الأمر اختلف قليلاً بالنسبة للعلماء والتجار ، اذ شكل هؤلاء دعماً للسلطة المملوكية ومنحوا الشرعية للضرائب التي فرضتها السلطات المملوكية على الشعب 0 سنحاول من خلال هذا الفصل دراسة النخبة أو الطبقة العسكرية التي كانت تحكم وتدير نيابات فلسطين 0 ومعرفة الدعم الذي حصلت عليه من العلماء والتجار ، وكيف تعيش المماليك مع طبقة العامة، ثم نفحص الروابط بين مختلف هذه الفئات و الطبقة الحاكمة 0

الحكام والاداريون

كان النظام المملوكي عبارة عن حكومة جند من العبيد، معظمهم من الاتراك والجرس 0 ولم يختلفوا في العرق فحسب، بل كانوا مختلفين في الاصل واللغة والتفكير والامتيازات عن معظم السكان الناطقين بالعربية في مصر وسوريا وفلسطين التي كانت تخضع لحكمهم 0 لقد تم جلب المماليك كعبيد من السهوب القوقازية والروسية 0 ورغم اعتناقهم الدين الاسلامي فقد بقوا منعزلين عن اتباعهم بموجب نظام عسكري الزمهم حدود

الثكنات 0 وأدى الى شرح واسع بين هؤلاء الحكام والمحكومين الذين لم يستطيعوا الوصول

الى مراكز عسكرية ومكانة هامة في الدولة 0 (1)

كانت الاهتمامات الأساسية لهذه النخبة العسكرية اعداد الجيش والاستحواذ على الموارد في الدولة وضمان قمع أي تمرد يقوم في الدولة 0 وكان على رأس هذه النخبة السلطان الذي احتفظ ببلاط واسع وعين ضباطاً قياديين لادارة الشؤون العسكرية وقمع أي تمرد أو انقلاب ضده 0 وكان الأمراء يتمتعون بمنزلة رفيعة حيث امتلك كل واحد منهم مجموعة من الممالك وعمل على تدريبهم واعدادهم ليقوموا على خدمته والدفاع عنه 0 واستخدم هؤلاء الأمراء كتبة ومحاسبين وتجار وجباة ضرائب للقيام بادارة ثرواتهم، وبهذا أصبحت الأسرة العسكرية قلب الادارة المحلية 0 شبيهة بمكاتب الدولة ولكنها تركز على تابعي الأمراء ومصالحهم الشخصية 0 (2)

تكونت الادارة المملوكية من ثلاثة أنواع من الدوائر الرسمية : دائرة المراسلات وحفظ السجلات، ودائرة جباية الضرائب ، ودائرة ادارة الجنود وتدريبهم 0 ووزعت الوظائف الادارية على الأمراء القيايين الذين سمح لهم بأن يتصرفوا بطريقة شبه مستقلة 0 فقد عين لكل مدينة حاكم وموظفون رسميون ليتولوا أمور الجيش وجباية الضرائب وصيانة المؤسسة العسكرية فيها 0 أما الخدمات العامة فقد وقعت على مسؤولية الحكام والأمراء الممالك كنتيجة غير مباشرة لمهامهم العسكرية والمالية 0 وبالتالي لم يكن هنالك أية خدمات، أو موازنات ،

أو اجراءات حكومية ، أو موظفين خصوصيين يهتمون بالحاجات الاقتصادية والثقافية والدينية
لأبناء المدن 0 (3)

كان النظام المملوكي عبارة عن مؤسسة عسكرية أخذ يمارس صلاحياته في المجتمع
من خلال السلطات التي أصبحت حقاً شرعياً لأعضائه 0 فقد كان الامراء والحكام بخاصة
أسياد قوات عسكرية كبرى متزايدة تدين بالولاء لهم وحدهم 0 وغدوا رؤساء لأسر كبرى
وبالتالي أرباب سلطة على الحرف والتجارات المحلية يتحكمون بموجب عائداتهم من الحبوب
بمعيشة المدن والأرياف 0 وكانوا طغاة بحكم سلطتهم في فرض الضرائب والمكوس على
جميع المداخل 0 وكانوا أيضاً أصحاب الاملاك الواسعة وتتحكم في مواد البناء الاستراتيجية
واليد العاملة وحقوق الملكية 0 (4)

كانت النخبة المملوكية أهم الطبقات في المجتمع وتسمى الخاصة 0 وتضم هذه النخبة
السلطان وحاشيته والامراء ذوي المكانة الاعلى 0 والنخبة الحاكمة تميزت عن الطبقة الاوسع
التي تشمل الموظفين الصغار والجنود ، يلي النخبة الحاكمة طبقة أخرى تسمى الاعيان 0
وكانت تطلق على أرفع الناس منزلة واكثرهم احتراماً مثل قادة الجماعات 0 (5)

لقد كان النظام المملوكي " لا مركزياً " فكل نيابة كان لها دواوينها الخاصة ، وكل
ديوان من تلك الدواوين خصص له مكان معين فيه الكتاب الذين يباشرون أعمالهم 0 ولكل
نيابة كان حرية التصرف في شؤونها الداخلية أما الشؤون الخارجية السياسية فكانت من
اختصاص السلطان في القاهرة 0 وتقوم النيابات بتقديم العون العسكري للدولة عندما يطلب

منها ذلك 0 حيث أن قوات كل نيابة ومواردها المالية تصبح في خدمة الدولة والصالح العام

عندما تتهددها الاخطار الخارجية 0(6)

وقد وجدت ثلاثة وظائف ادارية: هي الوظائف العسكرية (أرباب السيوف)

والوظائف الدينية، والوظائف الديوانية 0

(الوظائف العسكرية(أرباب السيوف)

نائب السلطنة : ويعبر عن صاحبها بالنائب الكافل، ويقوم النائب مقام السلطان في عامة

الامور 0 وكانت له ادارة خاصة به وخاتم خاص بنيابته، ويقوم بمنزل خاص يسمى دار النيابة

0 من مهماته النظر في أحوال الناس والغلات 0 وكان من عادة النائب أن يركب محاطاً

بالعسكر في ايام المواكب 0 وينزل الجميع في خدمته 0 وكان يقدم الهدايا الى السلطان 0 وكان

النائب له استقلاليتة في معظم الشؤون الداخلية المتعلقة بنيابته الادارية والمالية 0 وهو

المتصرف المطلق في كل أمر 0 وفي الغالب كان يحمل رتبة أمير 0 وكان الى جانب النائب

في كل نيابة أمراء من المراتب التالية: أمراء عشرينات وهم الطبقة الثانية في صفوف

الأمراء والمماليك 0 وتعتبر هذه المرتبة مرتبة حربية يكون في خدمة صاحبها عشرون أميراً

0 وأمراء العشرات هي المرتبة التي تليها ويكون في خدمة صاحبها عشرة أمراء 0 ويمكن

أن يكون صغار الولاة من أفراد هذه المرتبة 0(7) أمّا أمراء الخمسات التي تعتبر أصغر

مرتبة من مراتب الأمراء وكانت تضم كبار الاجناد 0 وقد كانت هذه الرتبة تمنح لأولاد

الأمراء المتوفين من باب التشريف 0 ويكون بخدمته خمسة مماليك 0(8)

نائب القلعة: وجدت هذه الوظيفة في قلعة صفد وبيت المقدس 0 ولم تكن موجودة في غزة 0 وتعتبر نيابة القلعة مستقلة عن نيابة السلطنة 0 وليس لنائب السلطنة عليه سلطة 0 وتكون التولية فيها من السلطان المقيم في القاهرة بمرسوم شريف 0 ويختار نائب القلعة عادة من بين مقدمي الألف أو أمراء الطلبخانة وهي المرتبة الحربية من أرباب السيوف والتي يلي صاحبها أمير المائة 0(9) ومن مهماته صيانة القلعة وحفظها 0 وعمارة ما ضعف من بنائها أو ما تدعو الحاجة اليه من تجديد في أبنيتها 0 ويتولى الحفاظ على الخزانة السلطانية، والعناية (بالزردخانة) أو مخزن السلاح الموجود في القلعة الذي يشتمل على المؤن والذخائر 0 ولنائب القلعة اجناد ومماليك يقيمون في القلعة، مهمتهم الحفاظ عليها، وهم يشكلون قسماً من جيش النيابة 0 كما أن للقلعة شروطها وتعليماتها حيث لا يسمح لأحد من رجال القلعة بمغادرتها الا باذن من نائب القلعة، ويوفر النائب طبل في القلعة لاستعلام أوقات الليل بضربات معينة الثلث الاول ضربة واحدة 0 والثلث الثاني ضربتين 0 والثلث الاخير ثلاث ضربات حتى يؤذن لصلاة الصبح 0 وتقع القلعة ضمن أسوار المدينة مثل قلعة بيت المقدس أو مكان قريب من المدينة يتميز بالحصانة والمنعة كقلعة صفد 0 (10)

والي المدينة: تواجبت هذه الوظيفة في النيابات الثلاث في فلسطين 0 ومن اختصاصات والي المدينة المحافظة على الأمن ومطاردة اللصوص والمفسدين، ومراقبة الخمارين، والمحافظة على أموال الناس وأرواحهم 0 وكان له الحق في جلد المخالفين من السكارى والعصاة 0 ولا

يجوز للوالي ايقاع العقاب بمجرد التهمة والظن 0 وهذا يعني أن على الوالي اثبات التهمة على

الشخص قبل ايقاع العقاب 0 (11)

الحاجب: وجدت هذه الوظيفة في نيابات فلسطين الثلاث 0 وهي وظيفة قديمة أحدثت في عهد

الخليفة الاموي عبد الملك بن مروان 0 وكان من صلاحياته حجب السلطان عن العامة

، وحياناً كانت تسمى القيادة 0 وكان الحاجب يسمى قائد الجيش 0 وفي العصر المملوكي

أصبحت من وظائف أرباب السيوف وكان يقوم أحياناً مقام النائب 0 (12) وقد كان حاجب

غزة برتبة أمير طبلخانة 0 أما صفد فكان فيها ثلاثة حجاب أكبرهم برتبة طبلخانة وهو

صاحب الحجاب 0 أما الحاجبان الآخران فكان كل منهما برتبة أمير عشرة 0 بينما نيابة بيت

المقدس فكان فيها أمير حاجب 0 وكان له مهمات خاصة أسندت اليه 0 ويخبرنا مجير الدين

الحنبلي عن ذلك بقوله " وكان بالقدس امير حاجب على عادة غيره من البلاد ، وكان يحكم بين

الناس ، وترفع اليه الامور المتعلقة بأرباب الجرائم وغيرها مما يرفع الى حكام الشرطة" (

(13)

الدوادر: وجدت هذه الوظيفة في بيت المقدس وغزة 0 ولكنها لم تكن موجودة في نيابة صفد

0 وكانت قبل ذلك ضمن وظيفة الحاجب وموضوعها إيصال الرسائل الى النائب وإبلاغه

بعمامة الامور ، والمشاورة فيمن يحضر لمقابلته 0 ومن مهماته تقديم الدواة لأخذ خطه على

عمامة المناشير والتواقيع والكتب الصادرة عن نائب السلطنة 0 (14) وحياناً كان يكلفه النائب

بمهمات حربية، ففي سنة (899هـ/1494م) كلف الامير جان بلاط نائب القدس الأمير جانم

دودار القدس مهمة في قرية بيت لقيا الواقعة الى الغرب من مدينة رام الله 0 فلاقى حتفه في

تلك القرية بتحريض من نائب غزة بسبب خلاف وقع بين النائبين 0(15)

المهمندارية: يسمى صاحبها المهمندار 0 ويقتصر عمله على تلقي البعثات الواردة الى النائب

وأمرء العربان ، وغيرهم ممن يرد الى النيابة من بلاد أخرى 0 فينزلهم في دار الضيافة 0 وقد

وجدت هذه الوظيفة في نيابة غزة ونيابة صفد 0(16)

شد الدواوين: يعتبر صاحب هذه الوظيفة رفيقاً للنائب ، ومتحدثاً في استخلاص الاموال،

ومن صلاحياته النظر في اوقاف المسلمين في صفد وغزة، بينما في بيت المقدس كانت

مسؤولية الاوقاف من اختصاص ناظر الحرمين الشريفين 0(17)

الاتابكية: ويسمى صاحبها اتابك العسكر 0 وأصلها أطابك ومعناه الوالد الأمير 0 أو أمير

الأب 0 أو أبو الأمراء 0 وغاية اللقب رفعة المحل وعلو المقام وهي وظيفة فخرية كان

يتسابق بعض الأمراء للحصول عليها بالرغم من عدم وجود صلاحيات لها ، وقد وجدت هذه

الوظيفة في نيابة غزة وصفد 0 بينما لم تكن موجودة في بيت المقدس 0(18)

خزندارية القلعة: وتختص بالخلع والتشريف السلطانية في القلعة 0 وقد وجدت في نيابة صفد

وبيت المقدس 0(19)

تقدمة البريد: ويتولى هذه الوظيفة مقدم البريد أو صاحب البريد 0 وقد وجدت هذه الوظيفة

في النيابات الثلاث 0 ومهمتها حمل رسائل السلطان أو النائب وكتبه 0 وكان من شروط

صاحب هذه الوظيفة كتم الأسرار والصدق والأمانة 0 وأحياناً كان الأهالي يرسلون كتبهم

بواسطته 0(20)

ولاية البر: وصاحبها مسؤول عن المنطقة البرية الواسعة المحيطة بكل من صفد وغزة، فقد

كانت غزة من أكثر المناطق اتساعاً حيث اشتملت على أجزاء من سيناء والنقب 0 بينما لم تكن

هذه الوظيفة موجودة في نيابة بيت المقدس 0 (21)

الوظائف الدينية

اختلفت هذه الوظائف من نيابة الى أخرى 0 بعضها وجد في بيت المقدس دون النيابتين

الآخرين، ويعود ذلك للمركز الديني الذي تتمتع به النيابة حيث المسجد الأقصى وقبة

الصخرة في مدينة القدس والحرم الابراهيمي في مدينة الخليل 0 اضافة الى الأوقاف الكثيرة

التي وقفت لمنفعة هذه المراكز الدينية ، وأهم هذه الوظائف:

ناظر الحرمين الشريفين: وجدت في بيت المقدس 0 وكان الناظر أميراً كبيراً برتبة طبلخانة

0 ويجمع بين نظر الحرمين الشريفين في القدس والخليل 0 وكان يتولاها عالم جليل برتبة

قاضي قضاة 0 وأحياناً يجمع نائب القدس بين هذه الوظيفة والنيابة 0 وهذه الوظيفة تتم

بمرسوم سلطاني في القاهرة 0 وأحياناً كان يضاف نظر الحرمين في القدس والخليل الى نظر

الحرمين الشريفين في مكة والمدينة 0 ويكون متوليها ناظراً واحداً 0 وهذا ما حدث في سنة (

697هـ/1297م) حيث كان القاضي شرف الدين عبد الرحمن ابن الصاحب ناظر الحرمين

في كل من القدس والخليل ومكة والمدينة 0 ومن اختصاصات ناظر الحرمين الاشراف

عليهما، وبناء واصلاح ما يحتاج الى اصلاح 0 أضف الى ذلك اشرافه على الأوقاف الخاصة بهما 0 (22)

مشيخة الصلاحية: هي وظيفة وجدت عند تأسيس المدرسة الصلاحية في زمن صلاح الدين الأيوبي وقد جعلت لتدريس المذهب الشافعي 0 فهذه الوظيفة تعتبر من الوظائف السننية في الاسلام 0 وتتم تولية هذه الوظيفة بمرسوم سلطاني من القاهرة 0 وعند التعيين يدخل شيخ الصلاحية مدينة القدس 0 ويشق شوارعها وقد ارتدى التشريف السلطاني يرافقه العلماء والفقهاء والنائب والناظر 0 وينتهي الى المسجد الأقصى حيث يقرأ المرسوم السلطاني 0 وكان لشيخ الصلاحية منزلة خاصة لدى السلاطين ، وهذا ما يدل على الاحترام والتقدير لهذه الوظيفة لدى الدولة ورجالها حيث أن شيخ الصلاحية يعتبر أحد الثلاثة الكبار الذين يصرفون شؤون نيابة القدس 0 (23)

الخطابة: يقصد بها خطابة المسجد الأقصى وقبة الصخرة والمسجد الابراهيمي في الخليل 0 والخطابة كانت من أهم الوظائف الدينية وأعلاها مرتبة في النيابة 0 في البداية كان التعيين يتم من قبل قاضي القضاة 0 ثم أصبح يتم من قبل السلطان حيث يأتي التقليد والمرسوم من القاهرة 0 فيدخل الخطيب المسجد الأقصى وهو يرتدي خلعة السلطان ثم يقرأ كتاب التقليد والتولية أمام جمهور المصلين والحضور 0 وتقاضى هؤلاء رواتب من الدولة 0 ومن أجل ذلك وقفت قرى كثيرة في منطقة القدس لهذه الغاية 0 وقد تولى آل الغوانمة خطابة المسجد الأقصى مدة طويلة 0 وهذه الوظيفة وجدت في نيابة غزة وصفد 0 (24)

القضاة: تواجد قاضي القضاة في كل نيابة وكان المسؤول عن تعيين القضاة في جميع ولايات النيابة 0 وقد جعل السلطان بيبرس القضاء في أربعة قضاة : المذهب الشافعي، والمذهب الحنفي، والمذهب المالكي، والمذهب الحنبلي 0 وكان التعيين في منصب قاضي القضاة يتم بمرسوم شريف من السلطان 0 وكعادة الموظفين الكبار في النيابة يدخل القاضي المعين المدينة مرتدياً خلعة السلطان 0 وفيما بعد صار القضاة يبذلون الأموال للحصول على وظيفة قاضي القضاة 0 كما حدث في بيت المقدس في سنة (878 هـ / 1473م) حيث تولى منصب قاضي القضاة الحنفي القاضي جمال الدين الديري بعد أن دفع مالا كثيراً للحصول على هذه الوظيفة 0(25) وكان يساعد قاضي القاضي في مهمته كل من كاتب القاضي الذي يشترط أن يكون عارفاً بمدلولات الألفاظ العرفية واللغوية، وحسن الفهم ، وشدة الملاحظة ، وله دراية بالسجلات والمحاضر 0 وقد صرفت لأصحاب هذه الوظائف رواتب خاصة تكفيهم عن الاساءة الى وظيفتهم 0(26)

المحتسب: الاصل في عمل المحتسب الامر بالمعروف والنهي عن المنكر 0 وقد تطورت هذه المؤسسة ، فبات القائم بها يتولى الاشراف على النظام العام ، ويشرف على الأسواق، وعلى الآداب العامة، ويتحقق من مراعاة الشرع في جميع مجالات الحياة 0 وتواجدت هذه الوظيفة في كل من مدينة القدس والرملة وصفد وغزة والخليل ونابلس وربما في كل المدن الأخرى 0 وكانت التولية في هذا المنصب تتم من قبل نائب السلطنة في نيابات فلسطين 0(27)

نظر البيمارستان: لقد أكثر الأيوبيون والمماليك من بناء البيمارستانات، وقايةً لأهل البلاد وأنفسهم من الأوبئة والطواعين التي فتكت بالبلاد 0 ولم تكن هذه البيمارستانات مقتصرة على العلاج، بل أدت دوراً تعليمياً 0 فكانت أشبه بكليات الطب في وقتنا هذا، واشتملت على تخصصات وأقسام منها: الباطنية، وقسم المجبرين (العظام)، وقسم الكحالين (العيون)، وقسم للصيدلة من أجل تحضير العقاقير وطبخها وعمل المعاجين والمراهم، وقسم للنساء، وقسم للجراحة، وآخر للأمراض العقلية 0 فقد استمر البيمارستان الصلاحي في القدس والذي يعود تأسيسه إلى صلاح الدين الأيوبي سنة (588هـ/1192م) في عمله كالمعتاد في أيام المماليك كما أنشأ السلطان قلاوون البيمارستان المنصوري في الخليل سنة (680هـ — / 1281م) (28) وقام ناظر الجيوش المصرية القاضي فخر الدين محمد بن فضل الله ببناء البيمارستان الفخري في الرملة سنة (732هـ / 1331م) في عهد السلطان الناصر محمد بن قلاوون 0 كما قام الأمير تنكز بن عبد الله نائب دمشق ببناء بيمارستان في مدينة صفد 0 وقد خصصت أوقاف كثيرة لهذه البيمارستانات 0(29)

الوظائف الادارية

ناظر النيابة : وجدت هذه الوظيفة في النيابة الثلاث 0 ويعادل الناظر في اختصاصاته اختصاصات الوزير 0 حيث منصب الوزارة تغير اصطلاحه في العصر المملوكي فاطلق عليه نظارة 0 وكان الناظر يعين بمرسوم يصدره السلطان من القاهرة 0(30)

ديوان الانشاء : وجدت هذه الوظيفة في كل نيابة، وكان يتولاها (كاتب السر) في نيابة صفد وغزة، (وكاتب الدرج او كاتب الدست) في نيابة بيت المقدس 0 وكان يطلع على اسرار النائب 0 وتصدر عنه التواقيع بالولايات والعزل 0 وهو الذي يعلم بجميع المكاتبات والردود على الكتب الواردة في النيابة 0(31) وكان السلطان يحرص على ان يكون كاتب السر من خاصته الموثوق به ، كي يطالعه بخفايا أمور النيابة، وما يحدث فيها مما قد يخفيه النائب عن السلطان 0 وبالطبع كان يخبر السلطان بكل خبر قريب وبعيد 0 (32)

ناظر ديوان الجيش: وجدت هذه الوظيفة في نيابات فلسطين الثلاث 0 وكان يتولى هذه الوظيفة ناظر الجيش حيث يتم تعيينه بمرسوم سلطاني من القاهرة، وكانت مهمته تنحصر في ضبط الاقطاعات الخاصة بالنيابة، وتلك المقطعة للامراء والأجناد 0 والكتابة بالكشف عنها 0 وكان يساعده في مهمته كتاب وشهود 0 (33)

وقد ارتبط الفلاحون بهذا الديوان وبلغ من مساوئ هذا الديوان الزام الفلاحين بالفلاحة في الاقطاعات 0 حيث لا يجوز للفلاح ترك الأرض الا بعد مرور ثلاثة أعوام، وان ترك قبل

ذلك يلزم ويعاد اليها قهراً⁰⁽³⁴⁾ وتواجد في كل نيابة جيش خاص بها أو حامية بتلك النيابة من المماليك وجنود الحلقة والتركمان،

ويتألف من المشاة والفرسان⁰ وبلغ عدد أفراد حامية كل نيابة ألف فارس⁰ وهذا يعني أنه تواجد في فلسطين قرابة ثلاثة الاف فارس يساعدهم المتطوعة من أهالي فلسطين ورجال القبائل العربية في المنطقة⁰⁽³⁵⁾ وأحياناً كانت أعداد أفراد هذه الحامية تزداد تبعاً للتطورات العسكرية أو أعمال العصيان والتمرد من قبل الأشخاص أو القبائل⁰

ناظر بيت المال: ومهمة صاحب هذه الوظيفة النظر في أموال النيابة يساعده شهود بيت المال وصيرفي بيت المال وكاتب المال⁰ وقد وجدت هذه الوظيفة في نيابات فلسطين الثلاث⁰⁽³⁶⁾

الكاشف: يتولى هذه الوظيفة أمير برتبة أمير عشرين أو أمير عشرة⁰ وهو مسؤول عن تجهيز سائر الأعمال في النيابة مثل بناء الجسور والمنشآت الأخرى⁰ وكان يساعده بعض الأجناد في حفظ النظام والأمن في الولاية رغم أنها وظيفة ادارية^{0 (37)}

طبقة العامة

(1) الفلاحون : تعرض الفلاح لحياة صعبة في الفترة المملوكية من جراء النظام الاقطاعي، لم يستطع معها تغيير وضعه أو ظروفه⁰ فكان الفلاح يدفع ضرائب ورسوم اضافية غير ثابتة مثل الهدايا⁰ وقد انتهت حالة الريف في فلسطين في عهد المماليك الى الخراب ، مما دفع الفلاحين لهجر قراهم تاركين العمل بالزراعة⁰⁽³⁸⁾ وقد أشار بعض المؤرخين الى حالة

الفلاح في تلك الفترة حيث يقول السبكي " ومن قبائح ديوان الجيش الزام الفلاحين في الاقطاعات بالفلاحة، والفلاح حر لا يد لآدمي عليه ، وهو أمير نفسه ، وقد جرت العادة بأن من نزع من دون ثلاث سنين يلزم ، ويعاد الى القرية قهراً، ويلزم بشد الفلاحة ، والحال في غير الشام اشد منه فيها 0 وكل ذلك لا يحل اعتماده، والبلاد تعمر بدون ذلك 0 بل انما تخرب بذلك لأنهم يضيقون على الناس ، ويضيق الله عليهم" 0(39) لقد تراوحت حصة الفلاح الرسمية بين نصف المحصول الى ثمنه، وغالباً ما كانت ربعه 0 لكن هذا كان نظرياً فقط، فقد جرت العادة على مشاطرة الفلاح بحصته بحجة تقصيره في زراعة بعض أجزاء الارض وتبويره لها 0 وأثر ذلك يؤخذ مما بقي له عشره كصدقة 0 وبعد هذا كله يستوفي منه ما تراكم عليه من ديون سابقة مما يفيد بالمحصلة أن الفلاح كان يحصل على نسبة ضئيلة جداً من الغلال 0 لقد عاش الفلاحون ، وان لم يعتبروا من أقنان الارض ، ظروفاً كانت بعيدة عن العدل 0 وقد كان وكلاء المقطعين يخرجون نحو الحقول والمزارع مع اقتراب نضوج المحصولات ويلازمونها الى أن تحصد وتتقل الى البيادر 0 حيث تتم معالجتها بالدراسة، ومن ثم التذرية ، فقسمة الغلال 0 اما مناصفة في أراضي السقي ومثالثة ومربعة في غالب أراضي نيابات فلسطين ومخامسة ومسادسة في المزارع والنواحي الخالية من السكان، ومسابعة ومثامنة في النواحي المجاورة لساحل البحر فكان الاقطاعي يحصل على نسبة كبيرة من الانتاج ولم يتبق للفلاح الا نسبة قليلة 0(40)

ويحدثنا النويري عن اهتمام الفلاح بالارض فيقول " ان كل فلاح يقسم الاراضي التي بيده شطرين ، فيزرع شطراً ويريح شطراً ، ويتعهد بالحرثة ، ثم يتركه فترة حتى تتخلله أشعة الشمس، ثم يزرعه بالقابل ، ويريح الشطر الآخر الذي كان به الزرع، هذا دأبهم خلافاً لأراضي الديار المصرية، فانها تزرع كل سنة" ، وقد كانت غالبية الزراعات بعليّة، وقسم ضئيل اعتمد على مياه الري ، وهذا يعني أن الزرع كان في نيايات الشام اما شتوياً أو صيفياً، ويعني بالشتوي القمح والشعير والشوفان والفل والحمص والعدس والكرسنة ، أما الصيفي، فهو الذرة والدخن والسمسم والأرز والحبّة السوداء والكسبرة والمقائي (القثاء) والقرطم (حب العصفر) والقطن والقنب 0(41)

تأثرت الزراعة في العهد المملوكي بسياسة الشراء بالاكراه وقد أطلق عليها سياسة الرمي والطرح وانتشرت على نطاق واسع 0 وتقوم هذه السياسة على بيع السلع من قبل السلطان أو الأمراء أو موظفين رسميين آخرين الى تجار بسعر باهظ يفوق السعر المتداول في السوق بكثير وضد ارادة المشتري 0 لقد كان هذا الاجراء بالفعل مصادرة جزئية لرأس المال واسلوباً يجعل العمل شرعياً بينما هو في الحقيقة ايجاد ذريعة للقيام بالمصادرات 0 (42) وقد أثرى الأمراء بسبب هذه السياسة ثراءً فاحشاً 0 وامتلكوا ثروات واسعة 0 ففي سنة (737هـ / 1337م) أجبر التجار على شراء الغنم والماشية بأسعار تبلغ ضعفي السعر الحقيقي وبيع في السنة التالية القمح والفل والبرسيم بأسعار كبيرة 0(43) وفي سنة (890 هـ / 1485م) فرضت سياسة شراء الزيت بالاكراه في نابلس والقدس والجليل 0 حيث كان

الموظفون الرسميون المحليون يحتكرون انتاج زيت الزيتون في نابلس 0 ففي سنة (896 هـ/1491م) نظم نائب بيت المقدس لوائح بأسماء السكان في مدينة القدس وأجبر كل واحد منهم على شراء قنطار من الزيت بسعر خمسة عشر ديناراً 0 ولم يكن سعر الزيت يزيد على (250) درهماً عند البيع ثانية، او حوالي خمس دنانير بالسعر المتداول للدرهم المحلي 0 فجنى الامراء ارباحاً بلغت قيمتها (20000) دينار، وبعد عامين أجبر تجار الصابون والمسيحيون واليهود في فلسطين على شراء زيت الزيتون ، فيما أعفي من ذلك عامة الناس 0 وأجبر الجليل على شراء 160 قنطاراً ، والقدس 1340 قنطاراً ، وغزة 1000 قنطاراً، والرملة مقدار آخر لم يحدد 0 وفي العام (900هـ/ 1495م) عادت السياسة نفسها لتصبح عادة ثابتة لشراء الزيت بالاكراه في نابلس و الرملة وغزة والخليل، حيث أجبرت الخليل والقدس على شراء تسعمائة قنطار، والرملة مائتي قنطار، وأضيف فيما بعد عبء ثلاثمائة قنطار على نصيب تجار القدس ، وبيع الزيت مرة أخرى بخمسة عشر ديناراً علماً ان سعر الزيت كان في ذلك الوقت تسعة دنانير فقط 0 (44)

لقد أنتجت الاراضي في فلسطين أنواعاً متعددة من المحاصيل الزراعية 0 فزرعت أراضي صفد وغزة بالحبوب والخضار، وزرع الارز في المناطق الواقعة بين بحيرة الحولة وطبرية، وزرع القطن في سهل مرج بن عامر وبر صفد، وزرع قصب السكر في ساحل عكا خصوصاً قرية كابل الواقعة بالقرب من مدينة الناصرة بالجليل التي اشتهرت به ، كما زرعت اراضي الجليل ومنطقة نابلس والقدس بالزيتون والاشجار المثمرة والفواكه 0 وقام

بعض سكان المرتفعات في منطقة صفد وما حولها بزراعة الحشيشة، واعتصروا مادتها وخبزوها لتباع كمادة مخدرة حيث كانت هذه النبتة تدر عليهم أرباحاً كبيرة 0 فقد كان يتعاطاها الكثير من الأمراء والأثرياء في فلسطين في تلك الفترة 0 وكان يقبل عليها أيضاً بعض المتصوفة وبعض زعمائهم 0 حيث يدفعون بها الى أتباعهم في أوقات معينة لارغام الأتباع القيام بأعمال القتل والاعتقال لشخصيات منافسة لهم تحت وقع تأثير وتخدير هذه المادة عليهم 0 (45) ونشطت منطقة غزة بزراعة النخيل والشعير والقمح 0 وقد كانت هذه المحاصيل تعتمد على مياه الامطار 0 ففي سنة (807هـ/1404م) ارتفعت الأسعار في نيابة غزة والقدس نظراً لقلة الامطار 0 وكان الفلاح يستخدم أدوات تقليدية مثل المحراث الذي تجره الابقار 0 وعن هذا يقول المقرئزي " فكان الحراث يمر ببقره وهي تحرث في أراضي الرملة وغزة والساحل ، واذا به يخر ميتاً والمحراث في يده، ويبقى بقره بلا صاحب" 0 وهذا يدل على مقدار التعب والعناء الذي كان يبذله الفلاح في حراثة الأرض وفلاحتها وربما ازداد هذا العناء كثيراً في أوقات الأوبئة والطواعين حيث هلكوا بسبب الطواعين 0 (46)

ربى الفلاح في فلسطين الحيوانات لاستخدامها في أعمال الزراعة 0 ولأنها شكلت مورد رزق لكثير من سكان فلسطين 0 ففي غزة كانوا يؤجرون الحمير للحجاج النصارى أثناء مرورهم من غزة الى " دير القديسة كاترينا" 0 كما ربي العديد من الفلاحين في مدينة غزة وصفد الجمال 0 (47)

(2) الحرفيون والمهنيون

كان الأمراء يجلبون جنودهم للعمل في مشاريع البناء والأقنية والجسور، والتحصينات، والشوارع⁰ وإذا دعت الحاجة كانوا يأتون بجميع عمالهم كالخدم وسائسي الخيل، والرسل، وأمناء السر، والمستخدمين، وحتى الموظفين الدينيين الذين كانوا يعملون في المؤسسات التي سبق ومنحوها لدائرة الاوقاف⁰ (48) كان نحاسو الحجارة والنجارون الماهرون يستدعون بين الحين والآخر ليساعدوا على هدم الابنية التي تسد الطريق أو المساعدة في ترميم وصيانة الأبنية⁰ وكان يصعب جمع العمال غير الماهرين⁰ لأنه كان من السهل على هؤلاء العمال الهرب من الخدمة الإلزامية⁰ فكان المماليك في الواقع الطاقة البشرية، المنظمة الوحيدة، والجاهزة دوماً على اساس الاستعداد للعمل، والخاضعين كل الخضوع لأوامر رؤسائهم⁰ ومع ذلك فقد كان النظام يجلب عمالاً اضافيين للقيام بالأشغال العامة من بين السكان المدنيين⁰ فكانت السخرة مستخدمة في أشغال الأقنية⁰ وفي بعض الأحيان كان المتسولون والمساجين يجبرون على العمل الإلزامي⁰ (49) فقد قام المماليك بعد تحرير عكا من يد الفرنجة سنة (690هـ/1291م) باجبار فرسان الداوية على العمل كخطابين في تلال قرب جرش⁰ (50)

كانت المدن ذات الحجم المتوسط تعتمد على المدن الكبرى في توفير قوة عمالية ماهرة⁰ فقد استخدم السلاطين والأمراء مدينة دمشق كمجمع لليد العاملة للقيام بالأشغال في القدس والكرك والخليل، وكان الرجال يؤخذون للقيام بترميم المساجد والتحصينات، وبناء

الجسور ، كما كان البنائون والنجارون والنشارون ، ونحاتو الحجارة يرسلون الادوات والمواد من القاهرة الى مكة والمدينة والقدس، وكان هؤلاء العمال والحرفيون يرافقون الجيوش في حملاتها بغية خدمة الجنود، والمساعدة في اعمال الحصار، وكان يرافق الجنود باعة الاطعمة ، وصانعي الاحذية ، والخياطين جنباً الى جنب مع النجارين ونحاتي الحجارة 0 (51) وكان للعمال الماهرين فرص جيدة للوصول الى المناصب في الدوائر الرسمية ، وحياناً الى المناصب الراقية ، ممكناً من خلال المحسوبية والشراء ، فالخياط المخلص والكفو وكذلك اللحام أو الفراء كان بإمكانه اقناع سيده باعطائه وظيفة أمين سر 0 وما ان يتم للعامل التأهل بالمهارات حتى يكون قد شق طريقه الى مهنة أخرى أكثر مستوى من سابقتها تحددتها قدراته الشخصية 0(52)

كانت الدولة تستخدم العمال الحرفيين بصورة دائمة لتنفيذ المشاريع وتدفع لهم أجور منتظمة 0 بسبب تعرض مدن فلسطين للتدمير بفعل الحروب الصليبية والمغولية ، اما على يد الصليبيين، أو على يد المسلمين بعد كل حصار بذلت الدولة المملوكية جهوداً في تعمير المدن والحصون المدمرة مثل القدس وصفد وعكا 0 (53)

وقد كان الخبازون والفراؤون، والنجارون ، والخياطون ، والعطارون، يصنفون في مرتبة أعلى من حائك الحرير ، وصناع القباقيب الخشبية، والحمالين، وجامعي الاخشاب، وسقائي الماء 0 كما وجد بعض الحرفيين وأصحاب المهن الأقل مستوى من غيرها والتي يحجم عنها الكثير مثل سائقي الجمال والحمالين ، والباز دارين (مربو البزاة ومدربوها)

والحجامين، وعمال الجلود والدباغين، والضاربين بالرمل بغية كشف الغيب والتكهن،
والمشعوذين والحلاقين 0(54)

طبقة العامة الرثة (الاحداث والعيارون والشحاذون)

تشمل الطبقة العامة الرثة طبقة أدنى من عامة الشعب، وهم في نظر الطبقات الاجتماعية محتقرين من الوجهتين الاخلاقية والاجتماعية، ويحوزون على القليل ، أو لا شيء من الصفات الاسلامية المميزة في الحياة العائلية، والسلوك الديني ، والعمل 0 (55) وقد كانت طبقة العامة الرثة محرومة من غالبية الامتيازات 0 فلم يتمكن هؤلاء من أن يحوزوا على منصب رسمي، أو تعليم، أو ثراء، بل كانوا بالنسبة للخاصة مجرد غوغاء 0 وقد انقسمت هذه الطبقة الى عدة فئات 0 فئة كانت محتقرة حيث كانت تنتفع من الاحتيال أو الصفات التي لا تلاقي استحساناً من قبل الآخرين مثل السماسرة والباعة المتجولين وتجار الرقيق والاشخاص الذين يبيعون أشياء ممنوعة 0 وفئة أخرى وهي المشبوهة بأخلاقها مثل متعاطو الدعارة من رجال ونساء، وبائعو الخمر، ومصارعو الديكة، والندابون المحترفون، والراقصون ، والمرفهون (أي المشتركين في حفلات عامة كالمغنين)، وهناك فئة تختص بالحيوانات الميتة وفضلات الحيوانات بين الانجاس، ومنهم من كان يسوس الكلاب والحمير والزبالين 0(56) وكان أيضاً من بين الفئات المحتقرة الفئات التي يطلق عليها أرذال العامة أي(أدنى عامة الشعب) وأوباش العامة أي (الدهماء من عامة الناس) والغوغاء (مثيرو الشغب) وهم رعا ع الشوارع في المدن، كما اشتمل الاحتقار على عمال المآتم ،

والمتمسكين ، والمهرجين، والمتاجرين بالبغاء ، والمقامرين والصوص، والممثلين ،
والقصاصين 0 لقد كان هؤلاء جزءاً من طبقة العامة الرثة 0 فكانوا يستخدمون بشكل غير
منتظم، ويتجولون بغية التعيش ، ويتواجدون كلهم أينما وجدت الرذيلة والتسول 0 (57)
كان أفراد هذه الطبقة وثيقي الصلة بعضهم ببعض، فمثلاً كان المشاعلية، وهم الحراس الليليون
وحملة المشاعل الذين كانوا ينظفون المراحيض ويزيلون الفضلات من الشوارع وينقلون جثث
الحيوانات الميتة، يعملون أيضاً كرجال أمن ، وحراس وجلادين ، وحجاب محاكم،
ويعرضون الأشخاص الذين حكم عليهم بالتشهير العلني، وفي الوقت نفسه استخدم المشاعلية
كل هذا في حياة الليل ليصبحوا متورطين في المقامرة ، والسرقه ، والتجارة بحشيشة الكيف
التي كانت تزرع في مرتفعات صفا 0 (58)

وكان من بين فئات عامة الناس فئة أطلق عليها الزعار ، وهذه الكلمة ظهرت لأول
مرة في أواخر القرن الخامس عشر لتدل على العصابات المنتظمة للفتيان في أحياء المدن 0
وكان يطلق عل أفرادها اسم الأحداث في الفترات التي سبقت الفترة المملوكية ، وهم من
أكثر الجماعات تنظيمياً بحكم تنظيمهم العسكري ، حيث حازوا في بعض الأحيان على نفوذ
قوي ومؤثر في المجتمع 0 وقد لعبوا دوراً كبيراً في المقاومة الشعبية 0 ولكن المماليك
وجهوها بشكل يتوافق مع مصالحهم أحياناً 0 ومع النظام الاجتماعي القائم، وغالباً ما كان
هؤلاء عازبين، وكانوا يقصون شعر الرأس بشكل مميز حيث يدعى الواحد منهم بالقرعاني ،
ويرتدون اثواباً مرفوعة على أكتافهم كنوع من البزة النظامية 0 وكانوا يسمون في الاستعمال

الشائع للكلمة بالزعار (الأوغاد) والزعارى(الناس الأشرار) وغوغاء الزعران ورعاع الزعران ورعاع الحارات(رعاع الأحياء) والأوباش ، وجميعها تعابير ازدرائية تدل على احتقار لأنها كانت فئة مشاغبة خارجة على القانون والعادات والدين 0 وأحياناً كانت لها مقرات خارج أسوار المدن 0 وفي القرى المجاورة لمدن القدس ونابلس وغزة ودمشق وصفد وحلب والخليل 0 وكان يتسمى زعماء هذه الفئة بأسماء مثل السيد والشريف والرئيس،وقد حصلوا على هذا اللقب لأن معظمهم من عامة الناس وكانوا يسعون للارتقاء للأعلى ، وقد تلقبوا بألقاب أعيان الطبقة الوسطى 0 وقد كان هؤلاء يدافعون عن أحيائهم ويقفون في وجه السلطة المملوكية 0 ولكنهم كانوا يظلمون الأحياء بقدر ما يدافعون عنها 0 لقد كانوا قتلة ومجرمين ولصوصاً ونهابين يسطون على الناس لكسب قوتهم، وكانوا مسؤولين عن اغتياالات لا حصر لها، وربما نتجت هذه الاغتيالات عن الثارات بين الأحياء

(59)0

لعبت السلطة المملوكية دوراً مهماً في تسليح هؤلاء الزعار 0 وفي بعض الاحيان دفعوا لهم الاموال لقاء ولاءاتهم بغية استخدامهم كقوات عسكرية موازية واحتياطية، أو استخدامهم لتحقيق مصالح ذاتية، لذا فقد ساهمت سياسة المماليك في ايجاد ظاهرة الزعار 0 وبرزت عصابات اجرامية منظمة كانت تقوم بالسلب والنهب ، وكانت تتشط في الازمات والحروب، وكان يطلق عليها (المناسر) او الحرامية 0 و برزت فئة أخرى هي الحرافيش ذلك العنصر المكون من الفقراء المعدمين الموجودين في جميع المدن الرئيسية في المنطقة 0 في

القاهرة ودمشق والقدس ونابلس وصفد وغزة ، وكانوا يسكنون المنازل الحقيبة والاكشاك، والشوارع، وأحياناً في المساجد 0 ففي القدس وجد مكان يطلق عليه اسم ممر او طريق الحرافيش نسبة اليهم، وكان البعض يعيش ويطوف في المناطق الريفية خارج المدن 0 وفي الغالب كان يعتاش هؤلاء من سخاء السلطان والامراء والاغنياء ، وكانوا في زمن المجاعات من بين الانفس الفقيرة التي كانت تجمع لتطعم من صدقات السلطان ، أو توزع مع المتصوفين الفقراء وسائر المعدمين على منازل الأمراء 0 وأحياناً كان هؤلاء يتسولون أمام المساجد وفي الشوارع، وكانوا معتادين على الصراخ ، فيتذمرون ويطلقون الشتائم القذرة، الامر الذي كان يشكل حرجاً للسكان 0 وفي المساجد كان صراخهم العالي أحياناً يحول دون متابعة الصلاة، ومع هذا فقد كان الحرافيش رجالاً أقوياء البنية ، عاطلين عن العمل بحكم الظروف القاسية والسيئة التي أجبرتهم على ذلك ، أو هم أرادوا العيش بهذه الطريقة 0 فقد كان التسول عملهم الاعتيادي، وأحياناً كانوا يعملون بأجر بسيط، فينقلون الأقدار بعربات ، ويحملون الجثث المهجورة لقاء ربع درهم ، أو يدفنوها اثناء الليل لقاء نصف درهم 0 لقد كانوا من الخدم الوضيعين الذين يمكن أن يستخدمهم البائعون لجعلهم يقومون بالنقاط الكلاب الشاردة وازالتها من شوارع المدينة، وقد شكل هؤلاء الحرافيش جمهوراً غوغائياً خطيراً ومشاعباً 0 وكان الناس يخشونهم لأنهم شكلوا عنصراً غير منضبط في المجتمع 0 في بعض الأحيان انخرط الحرافيش في الجيش بصورة أكثر انتظاماً للقتال الى جانب المماليك في

التصدي للفرنجة والمغول، كما استخدمهم سلاطين وأمراء الممالك للاستفادة منهم في تحقيق

مصالحهم الشخصية 0 (60)

في القرن الخامس عشر بدأت صورة الحرافيش تتخذ ابعاداً جديدة ،حيث
 تنظمت في فرق ، وأطلق عليها عبارة طائفة ، وقد غلبت عليها صورة الدراويش
 حيث في العام (875 هـ/1470م) ذهب وفد من العامة من القدس الى القاهرة لتقديم
 عريضة الى السلطان، وكان أحد أعضاء هذا الوفد رجلاً كان يشترك في طقوس
 الدراويش، وكان هذا يقرع الطبل ثم يصل كالحصان 0 (61)

الطبقة الوسطى

(1) العلماء

كون العلماء المجتمع الاسلامي المثقف في الآداب والشرعية والعقائد الاسلامية 0 لقد
 كانوا قضاة، ورجال قانون وائمة، وفقهاء ومدرسين ، وحفظة القرآن الكريم، ورواة للحديث
 الشريفة، ومتصوفين، وخدم مساجد 0 وكان واجبهم الأساسي أن يحافظوا على أحكام
 الدين، ومد المجتمع بالارشاد الديني والأخلاقي 0 فكانوا يأمررون بالمعروف وينهون عن المنكر
 0 كما كان العلماء نخبة ادارية واجتماعية ودينية معاً 0 فكان الزواج والطلاق والوصاية
 ضمن سلطتهم القضائية ، وكان الارث والوصية وانشاء المؤسسات الخيرية أو الدينية أعمالاً
 ينظمها القضاة 0 ولم يكن العلماء طبقة متميزة بل فئة من الأشخاص متداخلة مع طبقات
 وفئات اجتماعية أخرى 0 فقد كانت اتصالاتهم متنوعة الى درجة مكنتهم من لعب دور حاسم
 في المجتمع 0 وكانوا مندمجين في المجتمع 0 فقد ارتبطوا بالتجار حتى أن بعضهم كان
 تاجراً ، وجمع بين العلم والتجارة حتى أنه كانت هناك طبقة عرفت بطبقة العلماء التجار 0)

62) وقامت علاقات مصاهرة بين العلماء والمماليك 0 لأن المماليك كانوا يهدفون الى الحصول على مكانة لهم في المجتمع الذي نصبوا أنفسهم حماة له 0 وقامت علاقات وثيقة بين العلماء وطبقات المجتمع الدنيا 0 وهناك الكثير من الحالات التي تشير الى العلماء وأبناء العلماء الذين أصبحوا موظفين رسميين 0 وقد أشغل العلماء مراكز ادارية في الدولة وكونوا تابعين لهم 0 وكان العلماء يطورون الممارسات القانونية والشعائرية الاسلامية وفقاً للمذاهب الاربعة: المذهب الشافعي، والمذهب المالكي، والمذهب الحنفي، والمذهب الحنبلي 0 وكان عامة الناس يلتزمون لدى العلماء القدوة، والنصيحة، والقيادة 0 (63)

كان العلماء يستخدمون مكانتهم للمساعدة في الدفاع عن المجتمع 0 كما أنهم قدموا دعماً سياسياً وساندوا الأمراء والمماليك الذين كان لهم معهم علاقات طيبة بنوع خاص وجندوا أنفسهم كداعمين للأمراء 0 وأحياناً كان للعلماء علاقة بالمكائد والمؤامرات التي كانت تحاك في البلاط السلطاني 0 (64) وبما أن أي نظام قد تطلب أموالاً فقد برهنت خدمات العلماء بأنها خدمات أساسية لهذا النظام 0 فغالباً ما تتطلب ضغوطات الاعمال الحربية ضرائب فوق العادة 0 فكان تعاون العلماء في التصديق على شرعية المطالب الضرائبية أمراً حيوياً من وجهة النظر القانونية حيث قام العلماء باصدار الفتاوى حول السماح بتقديم قروض هائلة الى السلطان أو منحه الهيئات المالية التي وهبت لصندوق الايتام 0 وأدى التعاون بين المماليك والأعيان من رجال الدين الى شبه دمج للعلماء في جهاز الدولة 0 فكان الموظفون الكبار من العلماء البارزين مثل رئيس القضاة ، وقضاة الجيش ، ورئيس المستشارين القضائيين ،

ورئيس الخزينة العامة ، وكانوا جميعاً معينين من قبل الدولة 0 لقد كانت مهارات العلماء
 ضرورية للدولة في نواح عديدة 0 وبفضل هذا التعاون فقد ارتقى العديد منهم في وظائف هامة
 في مؤسسات الدولة 0 (65)

استقطبت مدن فلسطين وخصوصاً مدينة القدس مئات العلماء والمدرسين في العصر
 المملوكي ، فانتشرت المراكز العلمية في جميع نواحيها 0 ففي سيرة ابن حجر العسقلاني
 يروي أنه "سمع بغزة من الشيخ احمد بن محمد الخليلي، وسمع في الرملة من الشيخ احمد بن
 محمد الايكي، وسمع في الخليل من صالح بن خليل، وسمع في بيت المقدس من المفتي شمس
 الدين عبدالله بن محمد بن اسماعيل القلقشندي" 0 وخرجت غزة الكثير من العلماء في
 الحديث والفقه والتصوف واللغة والأدب وقليلاً من العلماء في العلوم العقلية: منهم ابراهيم بن
 محمد بن بهاء المعروف بابن زقاعة المتوفي سنة (816هـ/ 1414م) وكان هذا على اهتمام
 بعلم النجوم ، وعلم الاعشاب ، وعلم الكيمياء 0 (66) وتواجد في نابلس عدد كبير من
 العلماء كان أكثرهم من الفقهاء ، والمحدثين 0 وقد اضطر أكثر من ثلثي هؤلاء للهجرة الى
 دمشق والقاهرة والقدس للاستزادة في العلوم 0 كذلك اشتهر الريف النابلسي بانجاب عدد كبير
 من العلماء في العصر المملوكي مثل قرى جماعين وبورين ومردا ورامين 0 (67)

أما مدينة الرملة فقد بلغت الحركة العلمية أوجها في القرن التاسع للهجرة حيث برز
 الكثير من العلماء في هذه المدينة 0 منهم شهاب الدين أحمد بن أرسلان، وقاضي القضاة علاء
 الدين أبو الحسن علي بن السائح 0 (68) وشهدت مدينة الخليل نهضة علمية جديدة في عهد

المماليك 0 وذكرت لنا التراجم أكثر من خمسين عالماً في عهد المماليك الشراكسة 0 ولكن قسماً منهم هاجر الى القدس ودمشق والقاهرة، وكان معظم علماء الخليل يعملون في المسجد الابراهيمي الذي كان مركز الحياة العلمية في المدينة 0 (69) أما مدينة صفد فقد عرف من علمائها علي بن الرسام الصفدي ، ونجم الدين بن محمد الصفدي ، وبرز عدد من الأطباء الذين عملوا في بيمارستان صفد الذي أنشأه نائب الشام سيف الدين تتكز 0 غير أن بعضهم قد هاجر الى القاهرة ودمشق 0 (70) ويلاحظ هنا كثرة تجوال وتنقل علماء فلسطين ما بين فلسطين ومدن الشام ومصر 0 ويعود هذا الى الرغبة في الاستزادة في العلم والمعرفة 0 كما أن سوء الأوضاع الاقتصادية قد ساهم في هذا التجوال والتنقل علاوة على تغير الولاءات والانتماءات بالنسبة لسلطة هذا الأمير أو ذاك 0

(2) التجار

كانت طبقة التجار طبقة ثرية وذات نفوذ ومحترمة اجتماعياً 0 كانوا تجاراً بالجملة وسماسرة وتجاراً عالميين، ووسطاء في بيع السلع الكمالية 0 وفي أحيان كثيرة كانوا أعداداً للأمراء في ذلك المجال 0 وكان بعضهم يتمتع بمستوى معيشي جيد 0 (71) كان المماليك مولعين بالسلع الكمالية، واستمتعوا باستعمال واقتناء الأواني الفضية والنحاسية، والأخشاب الثمينة، والورق ، والأجواخ الأنيقة 0 وهذا ساعد التجار على الثراء 0 لقد استطاع التجار جمع ثروات كبيرة، ووظفوا أموالهم في ممتلكات وعقارات جعلت منهم قوة اجتماعية مهمة حيث امتلك العديد منهم أراضي وكروم، وبساتين ، وحدائق وبيوت وأحياناً أسواق وحوانيت

ومعاصر وحمامات وخانات 0 كما توسط التجار في بعض المبادلات في المواد والسلع المختلفة 0 وعملوا على توزيع الحبوب بين الريف والمدينة وقاموا بتسويق حبوب الأمراء 0 وكان هناك تجاراً متجولين يتبادلون السلع بين المدن والمقاطعات 0 كما أنهم توسطوا في التجارة الخارجية 0 وهم بكل ذلك كانوا مرتبطين بشكل قوي بالدولة وبالنظام المملوكي، لأن قسماً كبيراً من الأملاك والأراضي والحبوب والمواد الخام كانت بأيدي الأمراء والسلاطين والقادة 0 (72) تواجدت قوة شرائية في فلسطين تولدت عن وجود العائلات المملوكية الكبيرة التي تستهلك المنتجات الكمالية والأطعمة، والقماش والحيوانات، والتجهيزات العسكرية، وبلغت كمالها حرص الأمراء والأغنياء على اقتنائها مثل الأواني والزخارف، والأثاث 0 والممالك لم يكونوا مستهلكين فقط بل كانوا أيضاً مستثمرين في التجارة، فكانوا تجاراً وعقدوا مشاركات مع تجار ليتاجروا بالنيابة عنهم 0 وقد كان لنفوذهم وسيطرتهم على مقاليد الحكم دوراً كبيراً في قوى الإنتاج في المجتمع وعمليات الشراء والبيع بالاكراه 0 كما كان يحدث في بيع كميات من الزيت في منطقة القدس ونابلس حيث كان الممالك هم من يحدد السعر الذي يتم البيع به 0 وطبعاً تجنى الفوائد على السلع وهي لم تتحرك بعد من منطقتها التي أنتجت بها 0 (73) وكان التجار الذين هم من أصل مملوكي قد استغلوا مكانتهم الرفيعة لتحاشي الضرائب التجارية، والقيام بأعمال غير شرعية 0 فقد عرف عنهم أنهم كانوا يبيعون المشروبات الروحية والخنازير إلى التجار الأوروبيين منتهكين بذلك حرمة المحظورات الدينية 0 (74) تطلب النظام والوضع الاقتصادي تجاراً يعملون كصرافين واعطاء القروض المالية

التي كانت بأيدي تجار التوابل الكارميين الذين كانوا ينقلون التوابل من البلاد الاسلامية ومنها فلسطين الى أوروبا 0 هؤلاء مكنتهم ثروتهم وتنظيمهم غير الاعتيادي من اعطاء قروض ضخمة حيث ساعدوا الموظفين الرسميين ، والحكام ، والأمراء بقروض ضخمة 0 وقد كانت بعض هذه القروض ابتزازاً أو قروضاً بالاكراه 0 وربما لم يتم تسديد بعضها 0 وان تم ذلك فربما كان بأقل مما يستحق لهم بالفعل 0 ومن أمثلة ذلك أنه طلب الى التجار في العام (687 هـ/1286م) أن يدفعوا الغرامات عن الموظفين الرسميين في كل من القدس ودمشق الذين كانوا قد استدعوا الى القاهرة ، ولم يكن معهم مال نقدي جاهز 0 وقد كان السلطان الناصر محمد مديناً بمبلغ 16000 ديناراً لعدة تجار اوروبيين ، فسواه بالغاء ديون الاوروبيين المتوجبة لتجار الكارم 0 وقد رضي التجار بما ألزمهم به السلطان 0 كما أن السلطان الناصر اقترض المال من تجار الكارم لتمويل الحملات العسكرية 0 وكذلك السلطان برقوق اقترض المال من تجار الكارم في سنة (790 هـ/ 1390م) حيث كان في حاجة شديدة الى المال 0 (75) لقد استثمر التجار أموالهم في تجارة الرقيق الرائجة التي احتاجها السلاطين والأمراء، مما أدى الى اندماج نشاطات التجار في السلطة المملوكية 0 وبما أن المماليك أنفسهم كانوا عبيداً ، فقد قام هؤلاء باحترام التجار الذين جلبوهم الى مصر كما فعل الأمراء الذين ربوهم فيما بعد 0 (76)

اعتمد التجار على حماية النظام ومساعدته حيث وقعت اتفاقيات ومعاهدات مع عدة دول ومقاطعات لتسهيل مهمة التجار المسلمين وحمايتهم 0 وبذلت السلطات المملوكية جهوداً

كبيرة لحماية التجار الأوروبيين 0 ولم يقتصر الأمر على الحماية فقط بل قدمت لهم مساعدة هامة من قبل دوائر البريد الرسمية والخانات التي كان يجري فيها استبدال خيول القوافل على طول الطرق الرئيسية التي كانت مدعومة من الدولة والأوقاف 0 وكان التجار يجدون المأوى والمؤونة 0 وقدمت الدولة حماية للتجار خصوصاً من هجمات البدو كما حدث في غزة وصفد في السنوات (749/819 / 825/ 849 هـ) 0 (77)

أنتجت مدن فلسطين سلعاً كثيرة مثل الزيت والزيتون والقمح والصابون والمنسوجات 0 وقد حملت هذه السلع الى مدن السلطنة المملوكية كدمشق والقاهرة والأسكندرية وحلب 0 وتوافرت الأسواق في المدن الفلسطينية حيث مارس التجار نشاطهم ، وتركزت هذه الأسواق حول المساجد 0 وكانت ذات دهاليز وطريقاً عاماً 0 واحتوت على ميادين ومآذن تشبه الأبراج 0 وكانت الدكاكين على جانبي السوق 0 وفي الغالب كانت هذه الأسواق مسقوفة مع وجود فتحات للتهوية ودخول ضوء الشمس 0 (78)

العلاقات المتبادلة بين سكان الريف والمدن والبدو

قسمت المدن الى مناطق سميت حارات ومحلات 0 وكانت هذه أحياء سكنية ذات أسواق محلية 0 وكان حجم الحي الواحد في مدن القدس وصفد وغزة والخليل بحجم القرى الصغيرة تقريباً 0 وكان هذه الأحياء متجانسة ووثيقة الصلة بين أفرادها 0 ولم يكن من الضروري أن يكون كل حي متضامن مع الحي الآخر 0 فقد تنوعت هذه الأحياء بسكانها 0 ففي القدس وجدت أحياء مسيحية ويهودية 0 وهذا أدى الى وجود خلافات حول المساجد

والكنيس المتجاورين أو حول ارتفاع المنازل 0 (79) وفي بعض الأحيان أدى التعاون بين أفراد الحي الى خلق عداوات كبيرة بين أحياء المدينة الواحدة 0 وزاد من ذلك دخول عنصر القبائل والبدو من الريف المجاور الى هذه الأحياء 0 فقد أحدثت الخصومات الكردية والتركمانية والعشائر البدوية التي لها صلات نسب أو مصاهرات مع القرويين والبدو في خارج المدن حروباً داخلية 0 ففي سنة (878هـ/1480م) تقاتلت أحزاب من الأكراد مع جماعة تسمى الدربة في مدينة الخليل 0 فتدفق رجال القبائل من الريف المجاور لنصرة زملائهم من الأكراد 0 ففي سنة (885هـ/1480م) تفجرت أعمال شغب في القدس لأن الحاكم أعدم بعض الأشخاص من بني زيد، فهاجم المدينة حلفاؤهم وأنسباؤهم القاطنون خارج المدينة، وأغاروا على الأسواق والمساجد وأطلقوا سراح المساجين 0 وفي سنة (889هـ — / 1484م) تقاتلت في مدينة الرملة جماعات من التركمان والبشكير فيما بينها نتيجة لخصومات الأحياء 0 (80) وقد ساهم الصراع القائم على السلطة بين أمراء المماليك في ازدياد هذه العداوات المتأصلة الجذور حيث الصراع القيسي- اليمني 0 وارتبطت الصراعات بين الجماعات بالبدو وأنماط التنظيم التي كانت تبدو متجذرة في أسلوب حياتهم من التنافس على المراعي والمواشي 0 وهذا شجع القبائل على التجمع في اتحادات قبلية 0 وأدت في النهاية الى تقسيم البدو الى تحالفات معادية لبعضها البعض وللجماعات الأخرى حيث لعبت دوراً كبيراً في اضطراب الوضع في منطقة غزة وصفد ونابلس والخليل وقد زادت السلطة المملوكية من هذا الاضطراب، اذ ساهمت في تقوية جماعة ضد جماعة أخرى 0 وأحياناً

كانت تستفيد من هذه الجماعات في تحقيق مصالحها السياسية والاجتماعية والاقتصادية، وفي صد الهجمات المعادية التي تتعرض لها 0 ولكنها غالباً ما كانت تنقلب على السلطة وتقوم بأعمال سلب ونهب وقتل، كما حدث لقبائل عائذ وجرم في غزة، وبني بشارة وحارثة في صفد وعكا في تلك الفترة (81)0

ألحقت الحروب والعداوات بين الفئات المختلفة ضرراً كبيراً ببنية الحياة الاجتماعية وقام المماليك بتجنيد مختلف الفئات في صراعاتهم 0 وساهموا في تمزيق المدن الرئيسية والاخلال بالأمن، وتشجيع السطو والنهب 0 ولا ننسى دور المماليك في خراب الريف حيث أكره الظلم الفلاحين على الفرار من القرى 0 وأدى الجشع وزيادة فرض الضرائب الى اهمال الري والاستثمارات في الانتاج الزراعي 0(82)

كانت العلاقات في المجتمع المملوكي بين نوعين السلطة المملوكية والفئات الأخرى بحيث يحمي أحدهما الآخر، ويمده بأسباب الحياة والبقاء 0 فيما يزود الآخر ببعض الموارد المالية ، أو يقدم له الخدمات 0 لذا فقد كانت علاقات التعهد والرعاية علاقات متبادلة 0 ولكن المماليك احتفظوا بجميع الخيوط الاجتماعية 0 فانشأوا ارتباطات مباشرة مع العلماء ، ومع التجار ، وعامة الشعب من أهالي الأحياء والأسواق 0 لقد ضمن المماليك عدم تكوين معارضة منظمة ضدهم 0 فقد صان المماليك مصالح طبقة التجار ، اذ أن سلامة التجارة بشكل عام كانت تعتمد على الدولة 0 كما وجد التجار أعمالاً ووظائف لدى عائلات الأمراء والسلطين 0 وقدم الأعيان بالمقابل دعمهم الى المماليك 0 ولكونهم قادة المجتمع الروحيين 0

فقد اعترف العلماء بالنظام وأضافوا عليه الصفة الشرعية 0 وأقنعوا الناس باطاعة أوامره ونواهيته، لكونهم يشكلون الطبقات الوسطى المهنية والادارية في المجتمع 0 وبالتالي ساعدوا النظام المملوكي على انجاز عمليات فرض الضرائب 0 وامتدت رعاية الممالك الى كل فئات المجتمع من علماء وتجار وأعيان وعامة الشعب من حرفيين ومهنيين ومزارعين وحرافيش وزعار 0 كما امتدت رعاية الممالك الى القبائل البدوية العربية التي لعبت دوراً كبيراً في جباية الضرائب وحفظ الأمن 0 الا أنها كما ذكرنا ساهمت في أعمال السلب والنهب واضطراب الأمن في بعض الأزمات 0 وبهذه الطريقة احتوى الممالك كل فئات الشعب 0 وحالوا دون قيام أنماط بديلة للحكم 0 ودون معارضة قوية وفعالة ضدهم 0 لأنهم في نفس الوقت كانوا يفضلون بين كل طبقة وأخرى عبر مجموعة من الامتيازات والخدمات 0(83)

خاتمة

ليس من السهل علينا أن نرسم صورة محددة المعالم للطبقات الاجتماعية التي كانت تسود فلسطين في الفترة المملوكية، بسبب عدم تناول المصادر لهذا الموضوع بالبحث والاسهاب وبالتالي ظلت هذه الفئات غائبة ومهمشة في المصادر، ومن أجل سد هذه الفجوة كان لا بد من الاستعانة بالحوادث المختلفة ولوائح السجلات العثمانية من أجل تغطية الخلل الذي اعتري تلك الفترة 0

عبث المماليك بكل شيء في حياة الناس من ممتلكات وأموال واقطاعات، وانتشرت الفوضى واللصوصية بعد أن ساندوا فئة على حساب فئة أخرى 0 فاعتدى هؤلاء على الأسواق والحوانيت وسرقوها 0 وخربت الطواحين وعمّ القحط والجوع وقل أصحاب الحرف، فاضطربت أحوال الدولة لافتقارها للأمن والاستقرار 0 لقد فقد النظام المملوكي أسسه وركائزه التي قام عليها 0 وأصبحت مالية الدولة بالتدهور بسبب بذخ واسراف سلاطين المماليك والانفاق الزائد الذين لم يحاولوا اصلاح الفساد في الدولة، وقد كان التلاعب بالعملية وضرب نقود جديدة وجني أموال أكبر وأكثر من الأمور التي خلقت عدم الاستقرار في الأسواق، وزادت من الارباك الاقتصادي للدولة 0 فلجأ سلاطين المماليك الى أساليب متعددة لأخذ الأموال مثل: فرض الضرائب والمكوس على التجار للحصول على الأموال، وتجهيز الحملات العسكرية ، وجمع خراج الأرض من الفلاحين قبل استحقاقه وقبل جمع المحصول الجديد 0 وساهم كل هذا في ضعف الدولة المملوكية، وفقدان الموارد الحيوية للدولة ،والقضاء

على منظومته الاجتماعية التي كانت قبل ذلك الأمر الذي أضعف الدولة ولم يمكنها من

الوقوف في وجه الأخطار الخارجية التي تعرضت لها على يد البرتغاليين والعثمانيين 0

الهوامش

- 1- ايرا لابييدوس 0 مدن الشام في العصر المملوكي 0 (دمشق: دار حسان، 1985) ص 86
- 2- لابييدوس، ص 87 0
- 3- لابييدوس، ص 88- 90 0
- 4- لابييدوس، ص 134- 135 0
- 5- لابييدوس، ص 138 0
- 6- هادية وبرهان الدجاني 0 الصراع الاسلامي الفرنجي على فلسطين في القرون الوسطى 0 (بيروت: مؤسسة الدراسات الفلسطينية، 1994) 0 ص 424 0
- 7- احمد علي القلقشندي 0 صبح الاعشى في صناعة الانشا 0 (القاهرة: دار الكتب، ج 4، 1920) ص 15 0
- 8- لابييدوس، ص 198 0
- 9- لابييدوس، ص 16 0
- 10- الدجاني، الصراع الاسلامي الفرنجي على فلسطين، ص 405- 406 0
- 11- تاج الدين عبد الوهاب السبكي 0 معيد النعم ومبيد النقم 0 تحقيق محمد علي النجار 0 (القاهرة: دار الكتاب العربي، 1948) 0 ص 44-45 0
- 12- تقي الدين احمد بن علي المقرئ 0 السلوك لمعرفة دول الملوك 0 (القاهرة: لجنة التأليف والترجمة، 1973) 0 ج 3، ص 1015 0

- 13- ابو اليمن مجير الدين العلمي الحنبلي 0 الانس الجليل بتاريخ القدس والخليل 0 الخليل: مكتبة دنديس، (ج 2 ،ص 281 0)
- 14- السبكي ، معيد النعم ومبيد النقم، ص 25 0
- 15- الحنبلي، الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل، ج 2، ص 371 0
- 16- الفلقشندي ،صبح الأعشى في صناعة الانشاء، ج 4،ص 241 0
- 17- المقرئزي، السلوك لمعرفة دول الملوك، ج 4 ،ص 81 0
- 18- ابو المحاسن ابن تغري بردي 0 النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة 0 (القاهرة: دار الكتب، ج 6، 1963) ص 20 0
- 19- تاج الدين السبكي، معيد النعم ومبيد النقم،ص 26 0
- 20- السبكي، ص 33 0
- 21- الفلقشندي، صبح الأعشى في صناعة الانشاء،ج 4،ص 198 0
- 22- الحنبلي، الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل، ج 2،ص 271 0
- 23- الحنبلي، ص 117 0
- 24- الحنبلي، ص 146 0
- 25- الحنبلي، ص 297 0
- 26- الفلقشندي،صبح الأعشى في صناعة الانشاء،ص 2
- 27- شهاب الدين احمد بن فضل الله العمري 0 مسالك الابصار في ممالك الامصار،

- تحقيق ايمن السيد 0(القاهرة: المعهد الفرنسي للآثار الشرقية، 1985) 0 ص 125
- 28- الحنبلي، الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل، ج 2، ص 79-89 0
- 29- ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ج 9 ، ص 296 0
- 30- القلقشندي، صبح الأعشى في صناعة الانشا، ج 4 ، ص 188 0
- 31- تاج الدين السبكي ، معيد النعم ومبيد النقم، ص 30 0
- 32- القلقشندي ،صبح الأعشى في صناعة الانشا، ج 11 ، ص 314 0
- 33- تقي الدين المقرئزي 0 كتاب المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار 0 بيروت: دار صادر، (القاهرة : ج 3) ص 368 0
- 34- تاج الدين السبكي، معيد النعم ومبيد النقم، ص 34 0
- 35- يوسف حسن غوانمة 0 نيابة بيت المقدس في العصر المملوكي 0(عمان: دار الحياة، 1982) ص 49 0
- 36- القلقشندي، صبح الأعشى في صناعة الانشا، ج 4 ، ص 31 0
- 37- القلقشندي، ج 4 ص 200 0
- 38- ر ئيسة عبد الفتاح العزة 0 نابلس في العهد المملوكي 0 (نابلس: دار الفاروق للثقافة والنشر، 1999) ص 101
- 39 -القلقشندي، صبح الأعشى في صناعة الانشا، ج 4، ص 200

40- شهاب الدين احمد بن عبد الوهاب النويري 0 نهاية الارب في فنون الادب 0 (القاهرة:

دار الكتب، ج 8) ص 257- 258 0

41- النويري، ص 255 0

42- لابيدوس، مدن الشام في العصر المملوكي، 100

43- لابيدوس، 96

44- لابيدوس، ص 102-104

45- النويري، نهاية الارب في فنون الأدب، ج 8 ، ص 257- 258

46- المقرئزي ، السلوك لمعرفة دول الملوك ، مصدر سبق ذكره، ج 2 ، ص 78 0

47- جمال الدين محمد بن مكرم ابن منظور 0 لسان العرب 0 (بيروت: ج 5) ص 219

48- لابيدوس، مدن الشام في العصر المملوكي، ص 116 0

49- لابيدوس، ص 113

50- لابيدوس، ص 115 0

51- لابيدوس، ص 116 0

52- لابيدوس، ص 216 0

53- الدجاني، الصراع الاسلامي الفرنجي في القرون الوسطى، ص 534 0

54- لابيدوس ، مدن الشام في العصر المملوكي، ص 142 0

55- لابيدوس، ص 140-141 0

- 56- لا بيدوس، ص 142 0
- 57- لا بيدوس ، ص 143 0
- 58- لا بيدوس ، ص 143- 144 0
- 59- لا بيدوس ، ص 256- 263
- 60- لا بيدوس، ص 295 0
- 61- لا بيدوس ، ص 294- 304 0
- 62- لا بيدوس ، ص 182- 184 0
- 63- لا بيدوس، ص 185- 191 0
- 64- لا بيدوس ، ص 223- 224 0
- 65- لا بيدوس، ص 225- 232 0
- 66- ابن حجر العسقلاني 0 انباء القمر بأبناء العمر 0 (حيدر آباد: مطبعة المعارف
العثمانية ، ج 3 ، 1967) ص 17 0
- 67- ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ج 9 ، ص 295- 296
- 68- الحنبلي، الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل، ج 2 ، ص 131- 132 0
- 69- الحنبلي، ص 78- 79 0
- 70- صلاح الدين بن ايبك الصفدي 0 الوافي بالوفيات 0 (المانيا: فرانتس شتاينرج 15 ،
1979) ص 483 0

- 71- لا بيدوس، مدن الشام في العصر المملوكي، ص 201 0
- 72- لا بيدوس، ص
- 73- لا بيدوس، ص 205 0
- 74- لا بيدوس، ص 203 0
- 75- لا بيدوس، ص 203- 204 0
- 76- لا بيدوس ، ص 201- 206 0
- 77- محمود علي خليل عطا الله 0 نيابة في العهد المملوكي 0 (بيروت: دار الآفاق الجديدة، 1986) 0 ص
- 78- رئيسة عبد الفتاح، نابلس في العهد المملوكي، ص 128 0
- 79- لا بيدوس، مدن الشام في العصر المملوكي، ص 146 0
- 80- لا بيدوس، ص 150 0
- 81- عارف العارف 0 المفصل في تاريخ القدس 0 (القدس: مطبعة المعارف، 1961) 0
ص 213- 214
- 82- لا بيدوس ، مدن الشام في العصر المملوكي، ص 60- 61 0
- 83- لا بيدوس، ص 308 0

الخاتمة

حاولت من خلال فصول هذه الدراسة أن أخرج بصورة متكاملة عن سكان فلسطين خلال الفترة المملوكية ، واتضح لي من خلال الدراسة أن أحوال السكان في فلسطين في الفترة المملوكية قد تأثرت بسبب سوء الادارة المملوكية والصراع على الحكم وانتشار الأمراض والأوبئة 0

ان المعطيات والمصادر التي اعتمدتها هذه الدراسة تفيد أن المسلمين كانوا يشكلون الغالبية العظمى من السكان 0 وبالرغم من الصعوبة في تحديد نسبة كل مجموعة دينية لمجموع السكان بصورة قاطعة ودقيقة فان المعلومات المتوفرة والتي عالجت فترة حكم المماليك والفترة التي سبقتها ودفاتر الضرائب العثمانية في مطلع القرن السادس عشر تترك لدينا الانطباع القوي بأن نسبة مسلمي فلسطين لمجموع سكانها كانت تتراوح بين 70 و 80% ، ونسبة النصارى بين 20 و 30% أما نسبة اليهود فلم تتجاوز ال 5% في جميع الأحوال 0 سكن فلسطين في تلك الفترة أخلاطاً من العرب والفرنجة والتركمان والأكراد والأتراك ، وقد لعبت هذه المجموعات دوراً كبيراً في الحياة الاجتماعية في هذه الفترة وكان لها تأثيرات كبيرة انعكست على الجوانب السياسية والعسكرية والاقتصادية 0

امتازت فلسطين بتعدد البنية البشرية فيها 0 فقد كانت خليطاً متعدد الأعراق ، ومع أن هذا التعدد لم يؤد الى حدوث تنافر بين فئات السكان الا من بعض الحالات التي كانت تحدث بين الحين والآخر ولكنها سرعان ما كانت تنتهي 0

تعود أهمية المماليك في التاريخ العربي الاسلامي الى قضائهم على خطرين رئيسيين
كانا لا يزالان يهددان دار الاسلام 0 فقد استطاع المماليك دحر الجيش المغولي في عين
جالوت، كما استطاعوا انهاء الوجود الصليبي في فلسطين 0

امتاز العهد المملوكي بكثرة فترات القحط مما أدى الى المجاعة وانتشار الأوبئة ، كما
أن سلاطين المماليك قد ربطوا كيانهم بالجهاد من أجل استعادة الأرض ، وعدوا ذلك من أهم
واجباتهم 0 فقد اهتموا بالمظهر الديني لدولتهم وقربوا العلماء منهم وأكثروا من بناء المساجد
والمدارس خصوصاً في بيت المقدس 0 ولعل المماليك بعملهم هذا كانوا يحاولون كسب العالم
الاسلامي واطهار أنفسهم كحماة للاسلام والمسلمين 0

كان المجتمع المملوكي منعزلاً على نفسه 0 لم يختلط أبناؤه مع عامة الناس 0
وحافظوا على جنسهم ولغاتهم وعاداتهم وتقاليدهم 0 واستمروا يتحدثون اللغة التركية كشرط
أساسي لاعتلاء الحكم أو الوظائف الحكومية 0 وانهصر زواجهم بالنساء التركيات أو بنات
الأمرء ، ونادراً ما اقترنوا بالنساء من عامة الناس 0 وظلوا منعزلين وبعيدين عن الفئات
السكانية الأخرى في المجتمع، ولم تنشأ علاقات بين الحاكم والمحكوم، ولم ينشغل كبار
الموظفين بهوم الناس ومشاكلهم، وكان انقسام المجتمع المملوكي ظاهرة مألوفة حيث تحولوا
الى فئات مميزة وزعماء وأمرء 0 وقد تحولت الوظائف الى ظاهرة للفساد والجشع والكسب
المادي ، وغابت العدالة وانتشر الظلم ، وارتشى القضاة ، وانغمس السلاطين في الاحتيال
والابتزاز البشع على أساس مصالحهم الخاصة ، وظهر التنافس بين مدبري السياسة والادارة

على انتزاع المراتب العليا وسرقة الأموال وتعاطي الخمر والحشيش، واختلاس أموال الدولة ، كما استشرى الفساد في الدوائر الحكومية ، وفقد الحكام سيطرتهم ونفوذهم الاجتماعي 0 وشيئاً فشيئاً رأى الناس بالحكام مغتصبين للسلطة ، جباة ضرائب 0 فكهوهم ولم يعد لهم الحق الشرعي في الحكم 0 وهكذا أصيب المجتمع المملوكي بانحلال واضح في علاقة الدولة بالمجتمع والسلطان أو الحاكم بالمحكوم، وأصبحت النظرة العامة للناس أن الحكام والولادة مغتصبو سلطة 0ومما زاد الأمر سوءاً أن المماليك رفضوا مبدأ الوراثة وهذا جعل الصراع على السلطة مشاعاً للجميع من أفراد السلطة المملوكية 0 وبهذا نشط الأمراء الطامعين أحياناً بالتمرد وأحياناً بالانقلاب العسكري للوصول الى الحكم، وخلق هذا الكثير من الفوضى وعدم الاستقرار 0

لقد تميز العصر المملوكي بظاهرة الاقطاع في المؤسسة الاجتماعية والاقتصادية ، واتبعت السلطة المملوكية سياسة الأيوبيين في ادارة البلاد 0 فقد قدم الفلاح الكثير من الضرائب باستخدام العنف والقوة وعانى من الجباية وقيودها ، وأصبح عبداً أجيراً في الاقطاعية لا يستطيع الهرب أو التخلص منه 0 وبالتالي حولته الى قن يقوم بكل الأعمال الواجبة عليه ولا يحصل على شيء 0 مما أدى الى هجران الأرض وتدهور الزراعة ، وبعد هذا تحول السلاطين والأمراء للبحث عن موارد مالية جديدة بالاستحواذ على التجارة ، ومارسوا سياسة الشراء بالاكراه وبالأسعار التي حددوها هم 0 ونتج عن كل هذا انتشار الفوضى واللصوصية وخراب الزراعة والأسواق والتجارة، وانتشرت الأمراض والأوبئة التي

أهلك الكثير من الناس 0 ومع تدهور مالية الدولة لم يحاول السلاطين وقف هذا التدهور بل ازدادوا بذخاً واسرافاً وانفاقاً ، ولم يخففوا من أعباء الدولة والسكان 0 بل لجأوا الى أساليب أخرى لأخذ الأموال منها فرض الضرائب والمكوس على التجار للحصول على أموال وتجهيز الحملات العسكرية 0 وجمع خراج الأرض من الفلاحين قبل استحقاقه وقبل جمع المحصول الجديد مما أرهاق العديد من الفئات 0 وساهمت بعض الفئات في الاخلال بالأمن والفوضى مثل القبائل والعبيد والزعار حيث كانت تعيش في المجتمع المملوكي 0

ولا شك أن العوامل الخارجية قد ساهمت في القضاء على دولة المماليك مثل البرتغاليين الذين هزموا الأسطول المملوكي وسيطروا على التجارة الشرقية للدولة المملوكية 0 وجاءت الضربة القاصمة على أيدي العثمانيين في عهد السلطان سليم الأول الذي هزم المماليك في معركة مرج دابق عام (921هـ/1516م) وقضى على دولتهم نهائياً في معركة الريدانية سنة (922هـ/1517م) 0 حيث أصبحت فلسطين تحت الحكم العثماني 0

قائمة المصادر والمراجع

المراجع العربية:

1. ابن أبي أصيبعة ، أحمد 0 عيون الأنباء في طبقات الأطباء، تحقيق نزار رضا 0
بيروت: دار مكتبة الحياة، 1981 0
2. ابن الأثير، عماد الدين اسماعيل 0 الكامل في التاريخ 0 بيروت: مطبعة دار صادر 0
3. ابن اياس 0 بدائع الزهور في وقائع الدهور 0 القاهرة: كتاب الشعب، ج 4، 1960 0
4. ابن تغري بردي، أبو المحاسن 0 النجوم الزاهرة في تاريخ مصر والقاهرة 0 القاهرة:
وزارة الثقافة والارشاد القومي، ج 6، 1963 0
5. ابن الجوزي، سبط 0 مرآة الزمان في تاريخ الأعيان 0 حيدر آباد: دار المعارف
العثمانية، 1951 0
6. ابن شداد 0 الأعلاق الخطيرة 0 تاريخ لبنان وسوريا وفلسطين، تحقيق سامي الدهان 0
دمشق: 1962 0
7. ابن الصيرفي 0 نزهة النفوس والأبدان في تواريخ الزمان، تحقيق حسن حبشي 0
القاهرة: مطبعة دار الكتب، 1973 0
8. ابن كثير، عماد الدين أبو الفداء اسماعيل بن عمر 0 البداية والنهاية في التاريخ 0
القاهرة: مطبعة السعادة، 1929 0

9. ابن عبد الظاهر 0 الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر، تحقيق عبد العزيز

الخويطر 0 الرياض: 1976 0

10. ابن الفرات 0 تاريخ الدول والملوك 0 بيروت: منشورات الجامعة الأمريكية ، ج 9،

1936 0

11. ابن منظور، جمال الدين محمد بن مكرم 0 لسان العرب 0 بيروت: ج 5، 1968 0

12. أبو شامة، عبد الرحمن بن اسماعيل 0 الروضتين في أخبار الدولتين 0 بيروت: دار

الجيل، د 0 ت 0

13. أبو غربية، عز الدين 0 فلسطين تاريخها وحضارتها 0 بغداد: منشورات اتحاد

المؤرخين العرب، 1981 0

14. أبو الفداء 0 عماد الدين اسماعيل بن الأفضل 0 المختصر في أخبار البشر 0 ج 3،

بيروت: دار المعرفة للطباعة والنشر، 1961 0

15. أبو اليمن ، مجير الدين 0 الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل، تحقيق محمد بحر

العلوم 0 النجف، ج 2 ، 1968 0

16. الاصفهاني، عماد الدين 0 الفتح القسي في الفتح القدسي، تحقيق محمد محمود صبح،

القاهرة: الدار القومية للطباعة والنشر، 1965 0

17. الامام، رشاد 0 مدينة القدس في العصر الوسيط 0 تونس: الدار التونسية للنشر،

1976 0

18. بروكلمان ، كارل 0 تاريخ الشعوب الإسلامية 0 ترجمة أمين نبيه فارس 0 بيروت: ط

6، 1974 0

19. بورشارد، الحاج بورشارد 0 وصف الأراضي المقدسة 0 ترجمة سعيد البيشاوي،

عمان: دار الشروق للطباعة والنشر، 1995 0

20. البيشاوي، سعيد عبدالله جبريل 0 الممتلكات الكنيسية في بيت المقدس الصليبية 0

الأسكندرية: دار المعرفة الجامعية ، د 0 ط ، 1989 0

21. البيشاوي، سعيد عبدالله جبريل 0 نابلس خلال الحروب الصليبية 0 عمان: 1991

22. التدمري، عبد السلام 0 " فتح قبرص في عصر المماليك " مجلة العربي، العدد 252،

1979 0

23. جوانفيل 0 مذكرات جوانفيل في وصف الأراضي المقدسة 0 ترجمة حسن حبشي،

القاهرة: دار المعرفة، د 0 ت 0

24. حتي، فيليب 0 تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين 0 بيروت: دار الثقافة، 1959 0

25. الحجي ، حياة ناصر 0 أحوال العامة في حكم المماليك 0 الكويت: شركة كاظمة

للنشر، 1984 0

26. حسن، علي ابراهيم 0 دراسات في تاريخ المماليك البحرية وفي عصر الناصر محمد

بوجه خاص 0 القاهرة: مكتبة النهضة المصرية ، 1944 0

27. الحوت، بيان نويهض 0 فلسطين القضية الشعب الحضارة 0 بيروت: دار الاستقلال للدراسات والنشر، 1991 0
28. الخولي، أمين 0 العلاقات بين النيل والفلوفا في القرن الثالث عشر والرابع عشر 0 موسكو: 1962 0
29. الدباغ، مصطفى مراد 0 بلادنا فلسطين 0 كفر قرع: دار الهدى، القسم الثاني، 2002 0
30. الدجاني، هادية وبهان 0 الصراع الاسلامي الفرنجي على فلسطين في القرون الوسطى 0 بيروت: مؤسسة الدراسات الفلسطينية، 1994 0
31. دراج، أحمد 0 الممالك والفرنج في القرن التاسع الهجري/ الخامس عشر الميلادي 0 القاهرة: دار الفكر العربي، 1961 0
32. دروري، يوسف 0 القدس في عصر المماليك، تحرير أمنون كوهين 0 القدس: ياديتسحاق بن تسفي، 1990 0
33. الذهبي، شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان 0 تاريخ الاسلام ووفيات المشاهير والأعيان، تحقيق عمر عبد السلام تدمري 0 بيروت: دار الكتاب العربي، ج 3، 1990 0
34. رافق، عبد الكريم 0 العرب والعثمانيون 0 عكا: مكتبة ومطبعة السروجي للطباعة والنشر، ط 2، 1978 0
35. الرشيدات، شفيق 0 فلسطين تاريخاً وعبرة ومصيراً 0 بيروت: 1991 0

36. رمضان، محمد أحمد 0 المجتمع الاسلامي في بلاد الشام في عصر الحروب الصليبية
0 القاهرة: 1977 0
37. رنسيما، ستيف 0 تاريخ الحروب الصليبية 0 ترجمة البار العريني، بيروت: دار
الثقافة 0 ط 2 ، 1980 0
38. زقلمة، أنور 0 الممالك في مصر 0 مكتبة مدبولي، 1995 0
39. زيادة، نقولا 0 رواد الشرق العربي 0 عمان: الشرق للدعاية والنشر، 1980 0
40. زيدان، جورج 0 تاريخ التمدن الاسلامي 0 (خمسة أجزاء) بيروت: منشورات دار
مكتبة الحياة، 1967 0
41. السبكي، تاج الدين عبد الوهاب 0 معبد النعم ومبيد النقم 0 تحقيق محمد علي النجار 0
القاهرة: دار الكتاب العربي، 1948 0
42. السخاوي، نجم الدين محمد بن محمد 0 الكواكب السائرة بأعيان المئة العاشرة
0 بيروت: محمد بن دمج وشركاه، 1945 0
43. سلام، محمد زغلول 0 الأدب في العصر المملوكي 0 الأسكندرية : منشأة المعارف،
1966 0
44. سيمينوفا 0 صلاح الدين والمماليك 0 ترجمة حسن بيومي 0 القاهرة: المشروع القومي
للترجمة، 1988 0
45. شراب، محمد محمد 0 معجم بلدات فلسطين 0 دمشق: دار المأمون للتراث والنشر

46. الشلبي، أحمد 0 موسوعة التاريخ الاسلامي والحضارة الاسلامية 0 القاهرة: مكتبة

النهضة المصرية، ط 3 ، 1977 0

47. شوفاني، الياس 0 تاريخ الشعوب الاسلامية 0 مؤسسة الدراسات الفلسطينية، ط

0 2، 1982

48. الصفدي، صلاح الدين بن أبيك 0 الوافي بالوفيات 0 المانيا: فرانكس شتاينر، ج 15،

0 1979

49. ضومط، انطوان خليل 0 الدولة المملوكية 0 بيروت: دار الحداثة ، 1980 0

50. الطراونة، طه تلجي 0 مملكة صفد في عهد المماليك 0 بيروت: دار الآفاق، 1982

51. طرخان، ابراهيم 0 النظم الاقطاعية 0 القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1968

52. العارف، عارف 0 المفصل في تاريخ القدس 0 القدس: مطبعة المعارف، ط 4، 1961

0

53. عارف ، عبدالله 0 مدينة نابلس 0 دمشق: 1964 0

54. عاشور، سعيد عبد الفتاح 0 الظاهر بيبرس 0 القاهرة: المؤسسة العامة للتأليف والنشر،

0 1963

55. عاشور، سعيد عبد الفتاح 0 الحركة الصليبية 0 القاهرة: المؤسسة العامة للتأليف

والنشر ، ج 2 ، 1958 0

56. العبادي، أحمد مختار 0 قيام دولة المماليك 0 بيروت: دار النهضة العربية، 1983 0

57. عباس، احسان 0 وفيات الأعيان 0 الحياة الثقافية والعمرانية في فلسطين 0 عمان:

0 1993

58. عبد الفتاح، كمال وهوتيروت 0 سكان فلسطين والأردن وجنوب سوريا في أواخر

القرن السادس عشر 0 1977 باللغة الانجليزية 0

59. عبد المهدي، عبد الجليل حسن 0 المدارس في بيت المقدس في العصرين الأيوبي

والمملوكي 0 عمان: مكتبة الأقصى ، 0 1981

60. عثمانة، خليل 0 فلسطين في خمسة قرون 0 بيروت: مؤسسة الدراسات الفلسطينية،

0 2000

61. العريني، السيد الباز 0 المماليك 0 القاهرة: دار النهضة العربية، 0 1966

62. العزة، رئيسة عبد الفتاح 0 نابلس في العهد المملوكي 0 نابلس: دار الفاروق للثقافة

والنشر، 0 1999

63. العسقلاني، ابن حجر 0 الدرر الكامنة 0 القاهرة: 0 1966

64. العسقلاني، ابن حجر 0 أنباء الغمر بأبناء العمر 0 حيدر آباد: مطبعة المعارف

العثمانية، ج 3، 0 1967

65. العسلي، كامل 0 قضية القدس 0 القدس: منشورات الجمعية الفلسطينية للشؤون

الدولية ، 0 1996

66. عطا الله، محمود علي خليل 0 نيابة غزة في العهد المملوكي 0 بيروت: دار الآفاق

الجديدة، 1986 0

67. العمري، شهاب الدين أحمد بن فضل الله 0 مسالك الابصار في ممالك الأمصار 0

تحقيق أيمن فؤاد السيد 0 القاهرة: المعهد الفرنسي للآثار الشرقية، 1985 0

68. غوانمة، يوسف 0 تاريخ بيت المقدس في العصر المملوكي 0 عمان: دار الحياة،

1992 0

69. الفتيحي، يعقوب 0 تاريخ بيت المقدس 0 ترجمة سعيد البيشاوي ، عمان : دار

الشروق، 1998 0

70. فوزي، فاروق عمر 0 فلسطين في العصر الاسلامي الوسيط 0 رام الله: دار الشروق

للنشر والتوزيع ، 1999 0

71. القلقشندي، أحمد علي 0 صبح الأعشى في صناعة الانشا 0 القاهرة دار الكتب، ج 4،

1920 0

72. ماير ، الملابس المملوكية 0 ترجمة صالح الشيتي 0 القاهرة: الهيئة المصرية العامة

للكتاب، 1972 0

73. محمود، أحمد صادق 0 القدس في العصر المملوكي 0 القاهرة: دار الاسكندرية للنشر،

دار الهدى، دار التوفيق، 1984 0

74. المغربي، عبد الرحمن 0 عكا ومنطقتها في العصور الوسطى 0 عكا: دار الأسوار ،

0 1997

75. المقدسي، محمد بن أحمد 0 أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، حققه جان دوغويه 0

ليدن: بريل ، 0 1967

76. المقرئزي، تقي الدين أحمد بن علي 0 المواعظ والاعتبار بذكر الخط والآثار 0

القاهرة: مطبعة بولاق ، 0 1952

77. المقرئزي، تقي الدين أحمد بن علي 0 السلوك لمعرفة دول الملوك 0 القاهرة: لجنة

التأليف والترجمة، ج 1، 0 1973

78. الموسوعة الفلسطينية ، الدراسات التاريخية ، المجلد الثاني 0 بيروت: 0 1990

79. الموسوعة الفلسطينية، القسم الأول، المجلد 1-4 ، دمشق: هيئة الموسوعة الفلسطينية،

0 1984

80. النابلسي، عبد الغني 0 الحضرة الأنسية في الرحلة القدسية 0 القاهرة: مكتبة القاهرة،

0 1902

81. نعييرات ، محمد أسامة 0 اقطاعية بيسان 0 عكا : مؤسسة الأسوار ، 0 2002

82. النمر، احسان 0 تاريخ جبل نابلس والبلقاء 0 دمشق: مطبعة ابن زيدون، 1938

83. النويري، شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب 0 نهاية الأرب في فنون الأدب 0 القاهرة:

دار الكتب، ج 8 ، 0 1948

84. لايبديوس، ايرا 0 مدن الشام في العصر المملوكي 0 دمشق: دار حسان، 1985 0

المقالات:

1. العسلي، كامل 0 " التعليم في فلسطين من الفتح الاسلامي حتى العصر الحديث " 0
2. الموسوعة الفلسطينية، المجلد الثالث، بيروت ، 1990 : ص 5 - 34 0
3. العسلي، كامل 0 " تكية خاصكي سلطان " 0 مجلة القدس الشريف ، العدد 22 ،
4. 1987 : ص 62 - 67 0
5. العسلي، كامل 0 " القدس المملوكية " مجلة القدس الشريف، العدد 34، 1988، ص: 79 -
- 0 81
6. العسلي ، كامل 0 "وثيقة مقدسية تاريخية جديدة- كتاب الوقف الذي انشأه الملك الظاهر
- بيبرس " 0 مجلة القدس الشريف ، العدد 10، 1986، ص: 77- 81 0
7. العسلي، كامل 0 "سبعة وعشرون نقشاً من فلسطين " 0 مجلة دراسات الجامعة
- الاردنية، المجلد 13 ، العدد 1 ، 1986، ص: 68 0
8. العسلي ، كامل 0 " الطابع الاسلامي الدولي للعلماء الذين أموا فلسطين وعاشوا فيها "
- 0 مجلة القدس الشريف ، العدد 8 ، 1985 : ص 4 - 50 0
9. يوسف ، محسن 0 "الخارطة الدينية لسكان فلسطين عشية الاحتلال الصليبي" 0
10. مجلة آفاق، العدد 7 ، 1993: ص 24- 47 0

11. "كامل العسلي وقضية القدس " أبحاث الندوة الدراسية المنعقدة في القدس من (14-

15) اذار 1996 ، منشورات الجمعية الفلسطينية الاكاديمية للشؤون الدولية ، 1996 : ص

0 474 -5

الوثائق:

1. وثائق المتحف الاسلامي في المسجد الاقصى ، اكتشفت في قبة الصخرة ، وتبلغ (

750) وثيقة من العصر المملوكي ، مكتوبة على رقاع من الرق 0

2. وثائق مملوكية في مصر لدى وزارة المعارف المصرية ، وتتعلق بموضوع تاريخ

المماليك في مصر وبلاد الشام وخصوصاً فلسطين 0

المراجع الأجنبية:

1. Norman A. Stillman , The Jews of the Arab Land A History and Source Book (Philadelphia , 1979)
2. Michael Hamilton Burgoyne Mamluk Jerusalem an Architectural Study (London) :Word of Islam Festival trust for British school of archaeology in Jerusalem, 1987.
3. Jacob Mann , The Jews in Palestine Under the Fatimid Caliphs, ed by Gerson D. Cohen (New York: Ktav publishing House, 1970)
4. David Ayalon, The mamluk military Society collected Studies (London Variorum Reprints, 1979).
5. Wolf-Dieter Hutteroth and Kamal Abdul Fattah, Historical Geography of Palestine, Transjordan and Southern Syria in the Late 16 Century(Erlangen 1977).
6. Drory, J, Jerusalem during the Mamluk Period(1250-1417) Symposium: Muslim Literature in praise of Jerusalem:Yad Ishak Ben Zvi, 1981

الملاحق

(الملحق الأول)

قائمة بأسماء سلاطين المماليك

سلاطين المماليك البحرية

- 1- شجرة الدر (ارملة الصالح ايوب) (648هـ/1250م)
- 2- المعز عز الدين ايبك (648هـ /1250م)
- 3- المنصور نور الدين علي (655 هـ /1257م)
- 4- المظفر سيف الدين قطز (657 هـ /1259م)
- 5- الظاهر ركن الدين بيبرس الأول (658 هـ /1260م)
- 6-السعيد ناصر الدين بركة خان (676 هـ /1277م)
- 7- العادل بدر الدين سلامش (678 هـ /1280م)
- 8- المنصور سيف الدين قلاوون (678 هـ /1280م)
- 9- الأشرف صلاح الدين خليل بن قلاوون (689 هـ /1290م)
- 10-الناصر ناصر الدين محمد بن قلاوون (مرة أولى) (693هـ /1294م)
- 11-العادل زين الدين كتبغا (694 هـ/1294م)
- 12- المنصور حسام الدين لاجين (696 هـ /1296م)

- 13- الناصر محمد (مرة الثانية) (698 هـ / 1299م)
- 14- المظفر ركن الدين بيبرس الثاني الجاشنكير البرجي (708 هـ / 1309م)
- 15- الناصر محمد (مرة ثالثة) (709 هـ / 1310م)
- 16- المنصور سيف الدين أبو بكر بن الناصر محمد (741 هـ / 1341م)
- 17- الأشرف علاء الدين قجق بن الناصر محمد (742 هـ / 1341م)
- 18- الناصر شهاب الدين أحمد بن الناصر محمد (743 هـ / 1342م)
- 19- الصالح عماد الدين اسماعيل بن الناصر محمد (743 هـ / 1343م)
- 20- الكامل سيف الدين شعبان بن الناصر محمد (746 هـ / 1345م)
- 21- المظفر سيف الدين حاجي الأول بن الناصر (747 هـ / 1347م)
- 22- الناصر ناصر الدين الحسن بن الناصر (مرة أولى) (748 هـ / 1347م)
- 23- الصالح صلاح الدين صالح بن الناصر (752 هـ / 1351م)
- 24- ناصر الدين الحسن (مرة ثانية) (755 هـ / 1354م)
- 25- المنصور صلاح الدين محمد بن حاجي (762 هـ / 1361م)
- 26- الأشرف ناصر الدين شعبان الثاني (764 هـ / 1363م)
- 27- المنصور علاء الدين علي بن شعبان (878 هـ / 1376م)
- 28- الصالح صلاح الدين حاجي بن شعبان الثاني (783 هـ / 1382م)

سلاطين المماليك البرجية

- 1-الظاهر سيف الدين برقوق (784هـ/1382م)
- 2-الصالح حاجي (مرة ثانية) من البحرية (791 هـ/1389م)
- 3-الظاهر برقوق (مرة ثانية) (792 هـ/1390م)
- 4-الناصر ناصر الدين فرج بن برقوق (مرة اولى) (801 هـ/1399م)
- 5-المنصور عز الدين عبد العزيز بن برقوق (808 هـ/1405م)
- 6-فرج (مرة ثانية) (808 هـ/1405م)
- 7-ال خليفة العباسي العادل المستعين بالله أبو الفضل (815 هـ/1412م)
- 8-المؤيد سيف الدين شيخ المحمودي (815 هـ/1412م)
- 9-المظفر أحمد بن المؤيد شيخ (824 هـ/1421م)
- 10-الظاهر سيف الدين ططر (824 هـ/1421م)
- 11-الصالح ناصر الدين محمد بن ططر (824 هـ/1421م)
- 12-الأشرف سيف الدين برسباي (825 هـ/1422م)
- 13-العزیز جمال الدين يوسف بن برسباي (841 هـ/1437م)
- 14-الظاهر سيف الدين جقمق (842 هـ/1438م)
- 15-المنصور فخر الدين عثمان بن جقمق (857 هـ/1453م)
- 16-الأشرف سيف الدين اينال العلاني الأجرود (857 هـ/1453م)
- 17-المؤيد شهاب الدين أحمد بن اينال (865 هـ/1461م)

- 18-الظاهر سيف الدين خشقدم (865 هـ/1461م)
- 19-الظاهر سيف الدين يلباي (872 هـ/ 1467م)
- 20-الظاهر تمربغى (872 هـ/1467م)
- 21-الأشرف سيف الدين قايتباي (872 هـ/1468م)
- 22-الناصر محمد بن قايتباي (901 هـ/1496م)
- 23-الظاهر قانصوه (904 هـ/1498م)
- 24-الأشرف جانبلاط (905 هـ/1500م)
- 25-العادل سيف الدين طومان باي الأول (906 هـ/1501م)
- 26-الأشرف قانصوه الغوري (906 هـ/1501م)
- 27-الأشرف طومان باي الثاني (922 هـ/1517م) (52)

المصدر : الموسوعة الفلسطينية 0 ص 627

(الملحق الثاني)

سكان فلسطين في مطلع القرن السادس عشر

سجل رقم (427) سنة 932 هجري / 1525م سجل رقم (1015) سنة 940 هجري / 1533م

خانة عاجز	عازب	رجل دين	خانة عاجز	عازب	رجل دين
2	1	937	55	20	20
-	-	-	-	-	-
129	-	164	26	-	-
-	-	1	-	-	-
199	-	224	19	-	-
963	2	1325	100	20	20
-	-	1	-	-	-
39	-	46	-	1	1
-	-	-	-	-	-
61	-	82	2	-	-
100	-	128	2	1	1
43	-	95	1	-	-
-	-	-	-	-	-
6	-	8	-	-	-
49	-	103	1	-	-

ممنون

37	114	1428	25	14	528
		1			-
-	-	113	-	-	120
		-	-	-	233
-	-	371			
37	114	1812	25	14	881
		1			-
؟			53	186	1179
					-
			8	93	909
					-
			61	379	20

المصدر: الموسوعة الفلسطينية 0 ص 782

(مرسوم السلطان خشقدم سنة 869هجري/1465م)
اسقاط الضرائب والرسوم عن الرهبانيات

بسم الله الرحمن الرحيم

رسم بالأمر الشريف العالي المولوي خشقدم السلطان الملكي الظاهر السيفي أعلاه تعالى وشرفه وأنفذه في الأفاق وصرفه يعتمد أن يسطر هذا المرسوم الشريف الى كل واقف عليه من المقر والجناب الكريمين العاليين الأميرين الكبيرين الكفيلي والكافلي السيفيين كافلي السلطنة الشريفة بالشام وحلب المحروستين أعز الله تعالى أنصارهما والجنابات والمجالس العالية والسامية الكافلية السيفية نواب السلطنة الشريفة : بطرابلس وحماة ، وصفد ، وغزة ، والقدس الشريف وناظر الحرمين الشريفين بها، وكاشف الرملة ونابلس ، والأستاذدار المتولي قبض مال الجرجان، والحكام، وولاية أمور الاسلام بالممالك الاسلامية ضاعف الله تعالى وأدام نعمتي، بيدي ويوضح لعلمهم الكريم المبارك أن المحتشم الموقر الأرخس القديس فخر طايفته وأهل ملته الرايس بدير صهيون وعين كارم وبيت لحم، وكبير طايفة الفرنج المقيمين بالقدس الشريف ، ودير صهيون، وجميع الرهبان المقيمين والواردين الى القدس الشريف رفعوا قصة لمواقنا الشريفة أنهم فيها أحوالهم، وسألوا صدقاتنا الشريفة في شمولهم بنظرنا الشريف وبعدلنا الشامل، وأن يجدد لهم مرسوماً شريفاً مطلقاً على حكم ما بأيديهم من المراسيم الشريفة من الملوك السالفة وهم: الظاهر بيبرس، والمنصور قلاوون، والناصر محمد، والناصر حسن واخوته والأشرف شعبان ، والظاهر برقوق ، والناصر فرج ، والمؤيد شيخ وولده المظفر ، والظاهر ططر ، وولده الصالح، والأشرف برسباي، وناظر اليه أن يتقدموا بمنع من يحدث على المذكورين حادث أو يجدد عليهم مظلمة وحملهم على حكم ما بأيديهم من المراسيم

الشريفة المشار اليها حيث اقتضته الشريعة المطهرة ، وكف أسباب الأذى والضرر عنهم ومعاملتهم بالمعدلة الشريفة ، ومنع من يتعرض لهم بسوء، ولا يكلفوا ما لا طاقة لهم به، ولا عادة عليهم ، ومنع الوالي والبلاصية والمشاة وغيرهم من دخول ديارهم وقطع مصانعتهم والتشويش عليهم ، واذا دخل ريس جديد وخرج من قبله لا يكلف أحد منهما الى مغرم، ولا يلزم بكلفة، ومن اعتمد خلاف ما رسمنا به من ذلك وما تضمنته مراسيم الملوك السالفة تبرز المراسيم الشريفة باحضاره الى الأبواب الشريفة عملاً بالعدل الشريف، واعتماد ما بأيديهم من المرسوم الشريف والمربع من ديوان الجيوش المنصورة المؤرخ بحادي عشرين شهر ربيع الأول سنة ست وستين وثمانماية ، والعمل به والوصية بهم ومنع من يتعرض اليهم بغير طريق مبين قولاً واحداً وأمرأ جازماً ، والمراسيم الشريفة تؤكد عليهم في ذلك غاية التأكيد، والاعتماد على الخط الشريف أعلاه حجة فيه بمقتضاه ان شاء الله تعالى 0

كتب في ثامن عشرين شهر صفر المبارك سنة تسع وستين وثمانماية

المصدر: الموسوعة الفلسطينية 0 ص 595-596

الملحق الرابع

مرسوم أصدره السلطان جقمق بخصوص الأرمن في القدس وقد نقش على لوح في المدخل

الجنوبي لحارة الأرمن

" برز مرسوم مولانا السلطان الملك الظاهر أبو سعيد محمد جقمق عز نصره بابطال ما أحدثه أبو الخير ابن النحاس من ضمان مار يعقوب دير الأرمن بالقدس الشريف عازماً سيف الدين المقر الشرقي الأنصاري وسأل في ابطال ذلك ليسطر في الصحائف الشريفة بتاريخ أربع وخمسين وثمانمائة من الهجرة الشريفة 0 ملعون ابن ملعون وعليه لعنة الله تعالى من أحدث ضماناً أو جدد مظلمة "

المصدر: كتاب دراسات في تاريخ المدينة 0 أمنون كوهين ص 117

الملحق الخامس

مرسوم السلطان قانصوة الغوري سنة (919 هجري / 1513م) بخصوص معاملة

النصارى معاملة لائقة 0 وقد أمر بنقشه على بلاطة ألصقها على باب كنيسة القيامة 0

بسم الله الرحمن الرحيم

المرسوم بالأمر الشريف العالي المولوي السلطاني الملكي الأشرفي السيفي أعلاه الله تعالى وشرفه وأنفذه وصرفه أن لا يكرهوا جماعة الرهبان النصارى والرهبانيات الملكيين واليعاقبة بموجب ولا بخفر ولا بظلم عند دخولهم قيامة القدس الشريف أسوة رهبان الكرج والحبوش ، ولا في مدينة غزة ولا في رملة لد ، الواردين من الرهبان ، والرهبانات من المذكورين في البحر والبر وكل ناحية لزيارة بيت المقدس مستمر حكم ذلك من تقادم السنين من غير احداث حادث، ولا تجديد مظلمة ومنع من يتعرض اليهم بسبب ذلك أو في كمنيرهم وهي تربتهم التي يدفنوا بها، ولا يتعرض أحد الى موتاهم ولا لنوابهم ومسامحة الرهبان والرهبانات من طائفة الروم والقبط من الموجب بالأعمال المذكورة في البسط والموسم على جاري عادتهم ، ومنع من يعارضهم في ذلك حملاً في ذلك على ما بيدهم من المربعات الشريفة السالفة ، والمربع الشريف الأشرفي الذي بيدهم عند انهاءهم أنهم رهبان وأهل ذمة ومنقطعين وان بيدهم عهذات وسجلات ومربعات شريفة شاهدة لهم بذلك ، وسألوا كتابة هذا المرسوم الشريف بذلك جميعه، وان ينقش شرح ذلك برخامة وتلصق بباب القيامة وليصير

ذلك تذكرة بعدل مولانا المقام الشريف عز نصره على ممر الدهور والأيام صدقة عليهم عند
تمثل القس صفرونيوس الراهب الملكي ورقعته لدى المواقف الشريفة ، فرسم لهم بذلك
بمقتضى القصة المرفوعة عن الرهبان والرهبانات المشمولة بالخط الشريف حسب الأمر
الشريف شرفه الله تعالى وعظمه ، بتاريخ اليوم المبارك التاسع من شهر الله المحرم الحرام
سنة تسع عشرة وتسعمائة ، والحمد لله وحده مصلياً ومسلماً على من لا نبي بعده 0

المصدر: الموسوعة الفلسطينية 0 ص 597